



معلوفة

ابن أبي سفيان

عباس محمود العفاد

(طبعة منقحة ومراجعة)



اسم الكتاب: معاوية بن أبي سفيان.
المؤلف: عباس محمود العقاد.
إشراف عام: والياد محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة السادسة - أغسطس 2006 م.
رقم الإيداع: 2003 / 13067
التقديم الدولي: ISBN 977-14-2342-8

الإدارة العامة للنشر: 21 من أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 8330434 (02) - 8330434 (02) فاكس: 8330434 (02) ص.ب: 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetniser.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330286 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetniser.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 من كامل صديقي - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - 11 القاهرة
ت: 5949127 (02) - 5948895 (02) - فاكس: 5903311 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 8002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetniser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 40 طريق الحرية (برشدي)
ت: 5462890 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (098)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetniser.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enabda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1988

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enabda.com

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

تقدير وتصدير

التاريخ عرض الإنسانية..

والعرض مناط ^(١) الحمد والذم فى الإنسان..

وكذلك التاريخ بالقياس إلى الإنسانية فى جملتها، لا يكون شيئاً إن لم يكن تقديراً لما هو صادق أو كاذب، أو ما هو صواب أو خطأ، وما هو حميد أو ذميم، من الحوادث والناس.

وقد نذكر الحوادث توسعاً فى التعبير، فإن الحوادث لا تعيننا لذاتها إن لم يكن معناها تقويماً لأعمال وقياماً بأعمال، أو لم يكن معناها فى صيغة أخرى تعريفاً بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه...

وكل شيء فى الحياة الإنسانية هين إذا هان الخل فى موازين الإنسانية، وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخل إلى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض إلى النقيض.

يهون كل شيء إذا هانت موازين الإنسانية: لأن موازين الإنسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال.

ومن هوان الموازين الإنسانية أن يختل كل هذا، فلا يوثق بمحصل الإنسانية كافة فى تاريخها القديم والحديث.

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى.. بل تختل وتنعكس، فيوضع فيها الذم موضع الحمد، والكذب موضع الصدق، والخداع موضع الإخلاص والإيمان..

وقد هان عرض إنسان واحد يشتريه المال أو الغرض فى حياته، فماذا يقال فى عرض الإنسانية الذى يشتري فى الحياة وبعد الممات، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلزمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيال على صفحات التاريخ!

ذلك أفدح مصاب تصاب به الإنسانية: إنه مصاب فى عرضها، فى صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها - فى موازينها وحسب - وما من شيء يعتز به الإنسان لا يدخل فى هذه الموازين.

(١) مناط : الموضع الذى تعلق به الأشياء.

وأوجب واجب على الإنسان لضميره أن يحمي نفسه من شر هذا المصاب الفادح، وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ في حاضره ومستقبله؛ فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرّة تحدث، ولكنه بلاء الزيغ^(٢) في البصر والبصيرة، وعلينا نحن أن نصحح البصر إذا زاغ؛ لأنه نقص وعيب وإن لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل. وكذلك نصحح زيغ البصيرة؛ لأنه نقص وعيب، أو لأنه تشويه في سواء الخلقة، وإن لم يعجل منه الضرر، ولم تذهب به المنفعة..

* * *

إن تاريخ الإنسانية من أوائلها إلى حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير، وصدق القياس لما عملوه.

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء؛ لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب، فيملك - بهذه الرشوة الرخيصة - خير ما تؤتيه الإنسانية أحداً من أبنائها في الحياة وبعد الممات.

على أن الموازين الإنسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة، ذهاباً مع الأجر العاجل والعطاء المعروف.

بل تصاب هذه الموازين من النهازين أو «الوصوليين» المطبوعين كما تصاب من النهازين المصنوعين أو المصطنعين.

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة، وإن لم يكن هو صاحب المنفعة ولا حاضراً لها عند انتفاع المنتفع بها.

من الناس من يحب ذلك؛ لأنه يرجع إلى طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة، والحقائق الصريحة.

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع؛ لأنه يتمنى أن ينجح على مثالهم، ولا ينكر النجاح إذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم.

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء؛ لأنه يكره أن يدان الناس، أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه، ولا يقدر على التماس المَعذرة لها في نقيصتها، أو في طبيعتها التي لا فكاك منها.

(٢) الزيغ: زاغ البصر: كلّ وزاغ الرجل: مال عن الاستقامة.

وليس أبغض إلى الإنسان من احتقاره لنفسه.
وليس أحب إليه من اعتذاره لها عن حقارتها.

وانك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطي على بصر الإنسان وتملك عليه
هواه، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التي ينقاد لها ولا يبتغي الشفاء منها.
إنه يتعصب في كل شعور يدفع به النقص، ويمهد به العذر، وينفى عنه الإضرار
إلى الإقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه.
وإنه ليعترف بالجهل إذا استطاع أن يدعى لنفسه تعلقة يسمو بها على أهل
المعرفة...

وإنه ليعترف بالعجز إذا استطاع أن ينزل بالقادرين إلى «مستواه» بخديعة من
خدائع النفوس.
وإنه ليعترف بالرديلة إذا استطاع أن يلوث الفضيلة التي يمتاز بها عليه ذرو
الفضائل البينة.

وإنه ليتشبث بهذه التعللات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة؛ لأنه بغير هذه
التعللات غريق في شعور ثقيل على جميع النفوس، وهو الشعور بالهوان...
لهذا يتعصب النهازون المطبوعون على أصحاب المثل العليا؛ لأنهم بين
اثنين: إما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا، ويعملوا في السر والعلانية عمل
أصحابها، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة..
وإما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها، ويتعصبوا لمن ينجح
بأساليبهم أو يتمنوا النجاح بأساليبه، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع، وإن
لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذور القدرة أمامهم من الناجحين الفعالين..

وقد عرفنا من هؤلاء أناساً في التاريخ ما عرفناهم في الحياة الحاضرة.
عرفناهم فعرفنا عجباً من العصبية العمياء التي تكيل بالكيلين وتمزن
بالميزانين في الحادث الواحد والحقة الواحدة.
إذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين، والآخر من المثاليين - رأيت العجب في
المقياس الذي يلتصقون به المعاذير لهذا، وينكرونها على الآخر في اللحظة الواحدة..

إذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحابة ولده أو ذوى قرياء لم يعذله أو لم يعنفوه في عذله، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها، وتجري الوتيرة^(٣) عليها... وماذا في هذا الصنيع عندهم مما يستغرب؟ كان على الرجل أن ينسى ابنه ليفضل عليه الغريب عنه؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل إنسان في هذا المكان؟.. يعذرون هنا بل لا يلومون، ولا ينفرون ممن يلومونه إن جاملوا «الظواهر» فلاموه.

أما خصمه المثالي فمعدود عليه أن يحابي نفسه فضلاً عن محابة ولده، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس في نقیصة من النقائص أو أمل من الآمال.

ولا حاجة إلى إمعان في البحث للكشف عن خبيثة الطبيعة النهازة في هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين.

إن الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين.

إنها تريد أن تعذر نفسها لتقول: إن ذلك المثالي ناقص، وإن هذا النفعي يجري على العرف الشائع بين جميع الناس. ولهذا يتناول النهاز الميزان وهو يعتمد أن يزيد في ناحية من السيئات ويحط من الحسنات، ويعتمد في الناحية الأخرى أن يقلب الكفة فيزيد على الحسنات ويحط من السيئات..

ويكفي أن ينسب إلى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة^(٤) بينه وبين ذلك العظيم المثالي، ثم يشعر بنوع من القرابة والألفة بينه وبين خصمه، فيميل إلى سماع الأحدثوة الحسنة عن هذا ولا يميل إلى سماعها عن ذلك، ويضطره إلى ذلك وقوفه بين طريقين: أحدهما غريب بصغره في نظر نفسه، والآخر مألوف بطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخليته..

نعم.. يكفي أن ينسب إلى العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى إليها؛ لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهاز إلى العظيم المثالي كما يستريح إلى النفعيين التاجحين.

(٣) الوتيرة: الطريقة المطردة يقوم عليها الشيء.

(٤) الجفوة والجفاء: البعد، وترك الصلة، والغلظ في العشرة، والخرق في المعاملة.

وتقول: «عمل من الأعمال لا يقدر عليه ولا يسعى إليه»؛ لأن هناك أناساً لا يقدرّون على العمل المثالي ولكنهم يسعون إليه، أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم إليه وتمنيه وصبرهم على مشقة هذا السعي وهذه الأمنية.. وليس هؤلاء بالنافعين المطبوعين.

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل في بلوغها ولا الغبطة بوجودها، وميولهم إلى جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم إلى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون إلى ساحة التاريخ إلا شهداء أو مستمعين. فلو كان محنة التاريخ كله من النهاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل.

وإنما المحنة الشائعة من أولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها، ويجاهدون من يكشف هذا الزيف ويقوم به قيمته الصحيحة، ثم تكثر العملة الزائفة في الأيدي حتى ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر، ولا ينفع المحك الناقد في هذه الحالة؛ لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف..

وفي التاريخ الإسلامي مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التي يرتبط بها عرض الإنسانية، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها في تواريخ الأمم؛ لأنها حاضرة الأخبار والروايات، حاضرة الأسباب والبواعث، ولا يخفى من شأنها غير النيات والمزاعم. وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولا تتوارى خلفها الأسباب والبواعث بحجاب كثيف..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان..

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال، ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التي اتفقت عليها جميع الأقوال. وإذا لم يرجع من أخبار هذه الفترة إلا الخبر الراجح عن لعن «علي» على

المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان.

فإن الذي يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يقدح الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافياً للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه، ولكن أخبار الأموال المبدولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون، ولم يعلم أحد مبلغها من الوفرة والجسامة، ولكنها معلومة بالتقدير وإن لم تعلم بالإحصاء وأرقام الحساب؛ لأنها استنفدت خزانة الدولة، وجرت إلى مضاعفة المكوس^(٥) والضرائب ومخالفة العهد لأهل الذمة وحسبان الزكاة من حصة الخزنة التي يستولى عليها ولاية الأمور.

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين، فإنهم قد تطوعوا في ذلك العصر، وفي العصور التالية؛ لترجيح كفة النجاح المنتفع على كفة المثالية العالية، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس في الزمن الأخير فإن الأقدمين لم تفتنهم «النفس» بجوهرها وإن فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين، وقد نفذوا إلى بواطنهم بالنظرة الناقية؛ لأنهم أصحاب نفوس تعلم ما تنطوى عليه النفوس.

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام ابن حنبل أنه سأل أباه عن علي ومعاوية، فقال: «اعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقتله فأطروه كياداً^(٦) منهم له».

وهذه بخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة في كل جيل وفي كل خصومة، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثنى عليه كما يصدر عن حقد على غيره، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب..

إن تاريخ معاوية بن أبي سفيان لا يحتاج إلى مزيد من تفصيل، وإنما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعاً إلى تصحيح الموازين، وبيان المداخل التي

(٥) المكوس: جمع مكس وهو دراهم تؤخذ من يائمي السلع في الأسواق.

(٦) كياداً: مصدر كيدته أي مكر به.

تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأساً على عقب. ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر، ونظرة الناظر، وإدراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة.

ونحن نفهم تاريخ معاوية، ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناء الدول إذا صححنا الموازين، وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود.

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره إذا أخذنا بظواهر الأقوال، ولم ننقب وراءها عن بواطن الأهواء والبواعث الخفية، ولا بد منها في هذه المرحلة بذاتها: مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص.

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثاً جليلاً بالغ الخطر في تاريخ الإسلام، وتاريخ العالم.

وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الأبدين ودهر الداهرين؛ لأن اطراد النسق من ولادة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بني الإنسان.

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل إلى زمن بعيد.

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين: كان في الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكاً باراً نقياً مصوناً من يذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية.

وكان في الوسع أن يسير على مشابه الملك في العصور الخالية بذخاً ومتاعاً وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين.

كان في الوسع أن يستدئ الملك في تاريخ العالم على النهج الصديقي أو الفاروقي وإن لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح، وكان هذا النهج خليقاً أن يظل إماماً للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قروناً وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب^(٧) المادية، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه في أخطر الأمور.

(٧) أوشاب: عيوب.

كان فى الوسع هذا، وكان فى الوسع ذلك.

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقتين هى الحادث الجلل فى صدر الإسلام، وهى الحادث الجلل الذى يقرر تبعاتها فى التاريخ الإسلامى بل فى التاريخ العالمى كله.

ورأس الدولة الأموية، معاوية بن أبى سفيان، هو صاحب هذه التبعة التى يجب أن تتقرر بأمانتها العظمى فى ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة، وهى منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير، يشق عليها الصعود إلى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنة، ويطلب لها أن تسترسل على هيئة^(أ) مع مألوفاتها فى كل يوم..

* * *

والصفحات التالية تتناول النظر فى سيرة معاوية من هذه الوجهة، فليست هى سرداً لتاريخه ولا سجلاً لأعماله ولا معرضاً لحوادث عصره، ولكنها تقدير له وإنصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الإنسانية كما يراها المجتهد فى طلبها وتمحيصها، وتكاد نقول كما يراها من لا يجتهد فى البعد عنها وإخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموى إلى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون إلى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم، كأنهم صنائع الدولة فى إبان سلطانها وبين عطاياها المغدقة، ونكاياتها المرهوية، ورجائها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة فى المطالب والمعاذير.

ولولا أننا نأبى أن نضرب الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم فى هذا التاريخ كلاماً ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية فى الجاهلية، ومنهم من يحسب من همة معاوية أنه تصدى للخلافة مع على، ويحسب من المآخذ على غيره أنهم تصدوا للخلافة مع يزيد، ومنهم من يشيد بفضل أبى سفيان على العرب؛ لأنه كان تاجراً يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم فى تجارته، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا فى أرواحهم وأعراضهم على

(أ) هيئة : بكسر الهاء: السكينة والوقار والرفق.

أيدي المصلطين عليهم من جند يريد، ولا تكاد تسمع منه لومًا لأولئك المصلطين، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدرى ما يصنعون غير ما صنعوه.

ولو أنف ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين لمعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه^(٩) بأطراف من تراجعهم وألوان من مسالكهم في طلب المنفعة والقياد بالقادرين عليها، وألوان من معذيرهم التي يرتضونها لأنفسهم ويوحون على الناس أن يرتضوها لهم أو يلتمسوها لهم، وإن لم يعلنوها.

* * *

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا في غنى عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها، وتتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله، وتتحرى في ذلك كله أن نصون التاريخ - نصرن ذمة الإنسانية - أن يملكها من يملك الجاه والسلطان في زمن من الأزمان.

(٩) نشفعه شفع العدد صيره شفعاً أي روجه وأتبعه بمثله

بين القدرة والعظمة

زبدة الصفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلاً قديراً، ولكنه لم يكن بالرجل العظيم

والفرق بين القدرة والعظمة بوضحة الاصطلاح ولا توصحه المعجمات اللغوية هذا التوصيح الذي نعنيه فقد يقاس عن العظيم به قدير ويقال عن القدير إنه عظيم. ولا يخطئ لقاتل من الوجهة اللغوية في هذا الترادف المقبول ما لم يقيده الاصطلاح

إنما الاصطلاح الذي نعنيه وننظر فيه إلى أحوال الطبائع أن القدرة غير العظمة في أشياء

فربما وصف الرجل بالقدرة، لأنه مقتدر على بسوغ مقاصده واحتجاج مفاعله والإصرار بغيره، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنه يوصف بها لفصل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه

ولعلنا نقرب من توصيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم

فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيماً كان أو غير عظيم، بل نقدر الأشياء بمقديرها وبو لم يكر لها عمل ولم نكن من وراء العمل نية، ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنه نوجب به التعظيم علينا، لأنه يعيننا ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التي تلحظها الإنسانية بأسرها وتعود عليها في منافعها وخيراتها. فكل عظيم قدير...

ولكن ليس كل قدير بالعظيم.

والعظمة قدرة وريادة

أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظيمة، فضلاً عن أن تكون عظمة وريادة

ومعاوية قدير ولا ريب

(١) احتجج. احتجج السوء خديه بالمعجب وهو المعجب المنعطفة الرأس. واحتجج المال ختواه وضعه إلى

نفسه

أما أنه عظيم فذلك الذي نعرض له في الصفحات التالية لسبين فيها الفارق بين القدرة والعظمة، في ترجمة رجل من أرفع الرجال الباهين لتوصيحه هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق.

ومن سرف القول أن يقال إن معاوية لم يكر يعمل بباعث من الغيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة واعرف المتبع في الأخلاق

فليس في وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد، وليس في وسع رجل أسلم على يد النبي عليه السلام وصاحبه وعمل على أيدي الخلة من صحابته أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة في عرف زمنه.

إلا أننا، مع العلم بغيرته الدينية في شعوره وفعاله، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلة المصلحة «الداتية» أو مصلحة «الأسره والعشير»

ونستطيع أن نعمم القول بغير استثناء على كل مسعى من مساعيه وكل حيلة من حيله وكل مأثرة من مآثره، فنقول إن المصلحة الداتية أو مصلحة الأسرة والعشيرة كامية لتعليلها والقيام بها، وإنه لم يعارض المصلحة الداتية بإرادته في حين واحد، وعارض المصلحة العامة في أحيان، كان رجلاً قديراً ولكنه لم يكن بالرجل العظيم.

ومهمة المؤرخ في سيرته أن يقدّر قدرته وأن يعرف ما اقتدر عليه بسعيه وتديبره وما اقتدر عليه بمساعدة الزمن وممالة الحوادث والمصادفات

وهذه المهمة تتقاصدا «أولاً» أن يجمع القوي في جميع انتمهيدات التي مكنته من الاقتدار على مقاصده، ومنها ما كان سابقاً للإسلام وسابقاً لمولده، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم في أثناء ملكه إلى ما بعد موته.

وتتقاصدا هذه المهمة «ثانياً» أن يرن المواهب العقلية والخلقية التي اشتهر بها وأسند إليها ما أسند من أسباب نجاحه

فنبداً الكلام في الفصول التالية بالتمهيدات التاريخية من قبل الإسلام إلى قيام الدولة الأموية، ثم نتلوها بتحليل الأخلاق والموهب التي تعد من وسائل نجاحه

وبلاحظ في ذلك كله أن «يقدر القدرة» التي ثبتت لهذا الرجل القدير من وراء المدائح والأهاجي ووراء الدعاية له والدعاية عليه

وبحسب أننا ربما بهذه الأمانة إذا انتهينا من هذه الصفحات إلى الورن الصحيح الذي يورن به رأس الدولة الأموية ويورن به غيره من أعلام التاريخ

تمهيدات الحوادث

بدأ التمهيد لعبي أمية في الشام قبل الإسلام بجيلين متعاقبين، وكانت الشام قبل ذلك سوقاً عامة لقريش، تأتيها قوافل الصيف بتجارة الحجار في حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر، وأظهرهم في الجيل الذي سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف.

ولم يكن رجحان هاشم بالرياسة والثروة حائلاً بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والإقامة بين المدن والبادية فيها، بل كان هذا الرجحان - فيما تفقت عليه الأخبار - سبباً لهجرة أمية من مكة وإقامته بالشام عشر سنين، إذ تناهز هاشم وأمие وتنافسا على الرياسة، واحتكما إلى الكهان كعادتهم على أن يكون للحالب إجلال المملوك عن مكة عشر سنين، فقصى المحكمون لهاشم على أمية، وخرج أمية إلى الشام فاخترها مقاماً له خلال هذه السنين، وربما كان ضيقه بالزعامة المعقودة لهاشم في مكة من دواعي الهجرة قبل الحكم عليه في قضية الماهرة المشهورة، وهي قضية قد تصح بتفصيلاتها أو لا تصح إلا بجزء منها، ولكن هجرة أمية إلى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلون.

ولما مات هاشم شغل أساؤه بالرياسة الدينية إلى جوار الكعبة، وآل اللواء إلى بني أمية، وهو عمل يوط بصاحبه حراسة القوافل من الشام وإليها، إذ لم يكن من حاجة قريش في الجيل السابق للإسلام عقد اللواء لحيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة، وإنما كان العمل الأكبر لصاحب اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر، وبين مكة واليمن في قليل من الأوقات. وكان عملاً يحتاج في الواقع إلى جيش صغير وقائد يحمل لواءه، لأن القافلة التي تخرج للتجارة تجمع أعمار قريش وتسير بها المئات من الإبل، ولا يمتظم سيرها بعير قيادة تقربى تنظيم المخافر وتوزيع المؤنة واستعرف إلى رؤساء القبائل التي تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام في البادية، فهي عمل متصل لا ينتهى بانتهاج رحلة القافلة ولا ترد له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوي الشأن في مراحل الطريق وهي منازل المقام.

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان معروف المكارمة

بين رؤساء الدولة البيزنطية على حدود بلاد العرب، كما كان معروف لمكانة بين
أبوحوه من قبائل البادية، وطلعت عليه الدولة البيزنطية لقباً من ألقاب الرئاسة
ليسفر بينها وبين قومه ويعينها في خلافها مع العرب الغساسنة بالشام، وكانوا
يحشرون أحياناً إلى جانب فارس في حربها لبيزنطة، ويرى البيزنطيون أنهم لا
يستفنون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية، ولو يتهديد الغساسنة
وتشكيكهم فيمن يحاورهم أو يعاملهم من العرب ابحاريين

وقد كان بدو أمية على شبه محالفة بينهم وبين بني كلب أقوى القبائل ببادية
الشام وأشدّ خطراً على العساسنة، ومنها من نصر مهادسة للغساسنة في خطوة
الدوبة مع ارتقابهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية، وقد عرفنا بعد
الإسلام ثلاثة من كبار لأمويين أصهروا إلى بني كلب في عصر واحد، وهم سعيد بن
العاص وإلى الكوفة، والخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان، ولا تكون
هذه المصاهرات أول العهد بالصلة بين الفريقين، فهي بقية لم تقدمها من الصلات.
ومن المشهور أيضاً أن أبا سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين،
وكان يلقي هرقل وأمرأء بيته في رحلاته، ويعول عليه هؤلاء فيما يعينهم من
أحوال العرب وأخبارهم، فقل إنهم سألوه عن النبي عليه السلام عند مبعثه، وإن
السائل حل يستنبته عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين في
المجلس، ويحذره أن يكذب فيكذبه من سمع كلامه من قومه قال أبو سفيان
وعلمت أنهم لا يكذبونني إن كذبت، ولكني صدقت الصفة ضناً بمروءتي أن أقول
ما يعلم السامعون أنه بدأ مكذوب

قال المقرئزي: «إنه ما فتحت بالشام كورة إلا وحدث فيها رجس من بني سعيد
ابن العاص ميتاً».

وكان النبي صلوات الله عليه يتحرى في اختبار الولاة أن يندبهم لولاية حيث
يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية، فاختار عمرو بن سعيد بن العاص والياً لتيما
وخبر وتبوك وفدك، وكلها على طريق التجارة الاموية، وسار أبو بكر على هذه
السة فاختار يزيد بن أبي سفيان قائداً لحيش من حيوش الحملة على الشام
وولاه بعض أقاليمها بقية حياته، وكنت وفاته في عهد القاروق فجرى على هذه
السة وعهد بالولاية إلى أخيه معاوية حيث بقى إلى ما بعد خلافة القاروق، وكان
يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه

ومن بنى أمية من كان يصرح بالطمع في الملك بعد رسول الله صلى الله عليه وآله
الصديق، إذ كان من أبناء عمرو بن سعيد بن العاص خلف على الولايات التي ولاها
إياه النبي صلى الله عليه وآله، فلما بويج أبو بكر بالخلافة أُنْفِرَا أن يعملوا له وقالوا
«نحن أبناء بنى أحيحة لا نعلم لأحد بعد رسول الله ﷺ أبداً».

ولا يقول هذا القول إلا من يطب الرئاسة لنفسه ولا يعرئ الرئاسة لغير ذي نبوه
أو رسالته إلهية، وينظر إلى الخلافة نظرة دنيوية لا تفحص فيها بصفة من صفات
الدين وسابقة من سوابق الهداية

وكان الفاروق قد ولي معاوية ولاية من الشام فضم إليه عثمان سائر الشام
وألحق به أقاليمها من الحزيرة إلى شواطئ بحر الروم فلما قتل عثمان كان قد
مضى لمعاوية في ولاية الشام عشرون سنة، لم يبق فيها من يبارعه أو يعصيه،
ولم يكن من عماله وحكامها المرءوسين له أحد من غير صناعته وأشياجه
والمستقرين في كتفه، لأنه حرص في ولايته على استبقاء من يواليه وإقصاء من
يشغب عليه، وحرص همه الأكبر أن يخرج أهل الفتنة من الشام ولا يبالي بعد ذلك
ما يصنع في سائر الولايات، ففترقوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام ويقلق الشكايات ممن يطلبون
منه عزل ولاته وأولهم معاوية، فيعتذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم
إنه إنما ولي على الشام من ارتصاه قبله عمر بن الخطاب. وقال ذلك مرة لعل
ابن أبي طالب، فقال له على نعم، ولكن معاوية كان أطوع لعمر من علامه يرفأ
وصديق الإمام فيما قال

فقد كان معاوية يصطلم الأبهة في إمارته ويقتصد فيها جهده بعيداً عن أعين
الفاروق، فإذا لامه الفاروق على شيء منها رآه بعينه اعتذر له بمقامه بين أعداء
ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنة، وكان يؤدي حساب ولايته لعمر
كلما سأله الحساب ويقنع منها برزقه من بيت المال ألف دينار في العام،
وأنعال^(١) مما يجمعه من تحارة أهله أو مما وراء الحساب.

هما بويج عثمان بالخلافة تركه في مكانه وضم إليه سائر الشام كما تقدم،
وطلب منه معاوية أن يرخص له في رزع الأرض التي تركها أصحابها وهاجروا
إلى بلاد الروم فأجابه إلى طلبه، ووضع معاوية يديه على موارد من المال تقوم

(١) أنعال جمع نعل بمنحنيين العنمة والبهمة

بأعباء دولة، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب، وأوشكت الشام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التي كانت تأتيه من المدينة بتحصيل الثغور وإمداد الفزاة وتسبير الحيوث إلى الأطراف بقيادة الأعلام من الصحابة

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين، أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام - حصة معاوية - والآخر لا وفاق فيه وهو حصة علي من الحار والعراق، وقد تدخّل مصر فيها حيناً ومخرج منها أكثر الأحيان.

وتولى معاوية بلاداً لا يناعه فيها معارح، ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتول إلى غيره

وتولى على بلاداً كلها نزاع من أمر الخلافة إلى أقصغر الأمور، فندزع الخلافة طلحة والزبير، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفهمين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهدهم في كل شأن من شؤون السياسة

وهذا إلى الفارق بين وعة المال من جانب وبدرته من الجانب الآخر. وهذا إلى فارق آخر أكبر وأعسر وأعصل على الحل والمحاولة، وهو الفارق بين لملك والخلافة، وقد افترفت طريقاهما منذ سعين، وتم افتراقهم بعد أيام عثمان فكانت أعباء الخلافة كلها على علي، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية عواتية له محيطة به فيما يريد وعندما لا يريد

كان الناس مع علي ينظرون إلى سنة النبي وسنة الصديق، والفاروق من بعده، وكان الناس مع معاوية ينظرون إلى هرق وكسرى، ولا يسومونه^(١٢) أن يحكم كما حكم النبي أو كما حكم من بعده الخلفاء الأولان.

وكان لا بد لعلي كما قلب في عبقرية الإمام - من ملك أو خلافة - أن يكون ملكاً بأدوات خليفة، ولا خبعة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب وحلاً يريد لعصر واعصر يريده، لأنه عصر ملك تهيأت له دواعيه الاجتماعية وتهاها له الرجل بخلافه ونياته ومعاوية أمثاله، ولم يكن معاوية زهداً في الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة في أيام النزاع بين علي ومعاوية، بل ظهرت بوادرها في أيام الصديق وأربادت ظهوراً في أيام الفاروق، وحدث كما أجملف

(١٢) يسومونه - سام ملات الامر كله إياه وأفرجه

ذلك في كتاب ذي النورين أن الصديق « اتخذ الحيلة للفتنة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معيبتهم له في الرأي ويبرر تحذيرهم الفتنة ومروق الولاية، وكان يقدم من ترخص^(٣) بعض الصحابة في أمور تؤذن بما بعدها، فقل لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت: «ما لقيت منكم أيها المهاجرون رأيتم الدنيا قد أنبلت ولما تقبل، وهي معبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ومضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاصطجاع على الصوف الأدرسي^(٤) كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعداء^(٥)».

واقصى عهد الصديق ثم اقصى عهد العاروق «والمجتمع الإسلامي مجتمعان أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه، والاخر مقبل ولما يقبل بأجمعه، وأوشك عمر على قوته أن يحار في تدبيره، وقال الشعبي إنه قضى وأوشكت قريش أن تملأ لشدة ووقوفه لها، بحيث وقف حائلاً بينها وبين زرعاتها ومطامحها في دنياها الجديدة».

• • •

وتتابعت السنوات على أيام عثمان وهذان لمجتمعان يلجآن في الافتراق حتى اضرقا غاية افتراقهما في النزاع بين علي ومعاوية، فكان علي يكبح تياراً حارفاً لا حيلة له في السير معه ولا في دفعه، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير مدافعة وعر حيرة ويركبه معه من لا يدامعه ولا يحار فيه.

وكأنما بقيت من التيسير لها والتعسير هناك فجاءت حصنة على حيث حاء الموالى^(٦) من كل جنس يطلبون الحق الذي يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقاً من الحقوق، وخالصت الحصنة الأخرى من هؤلاء أموالى وخلصت للعرب يوم كان العرب وخدمهم قرام الدولة في دمشق بين الفرشيين واليمانيين

أحاط أموالى بالإمام حتى قال له بعض أنصاره من العرب «لقد غلبتنا هذه الحمراء عليك» وسار الإمام في العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم أنه لا فص لعربي على أعجمى ولا لفرشى على حبشى إلا بالتقوى

(٣) الترخص التسهيل في الأمر والتيسير خلاف التشديد

(٤) الأدرسي المنسوب إلى أدرهجان

(٥) السعداء بيت به شوك تسمى عليه الإبل والحسك لشوك

(٦) الموالى جمع مولى وهو من أسلم من غير العرب

أما في الشام فقد كان معاوية لا يبال بهم لانهم قلة هناك لا يحسب لها حساب، ومرضاة العرب أولى من مرضاة الموالى في دمشق حيث قامت الدولة الأموية، وحدث هان خطبهم بعد ذلك حتى قيس، إنه هم بقتلهم والبطش بهم على غير عادته، وقال لهم غير مرة: إنكم عجم وعوج! وما كان من قيس لمصادفت أن اندوله الأموية قامت في دمشق، وأر الدولة التي قوضتها - وهي دولة بني العباس - قامت في بغداد فإن دمشق ما كانت لتصلح مقاماً للدولة بعد اتساعها للعرب وفرنس والنرك والديلم وموالى الأمم من كل قبيل.

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية في نشأتها، وكان اختلاط الموالى ضعفاً للدولة القائمة في الجزيرة، لأنهم أشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من أزمته.

وبجمت باحمة الخوارج فلم تكن لهم حرثومة في الشام ينجمون منها، ولكنهم أصبحوا شعبة حديدة من شعب الشقاق بين الموالى والشيعة من العرب وأصحاب الترمث والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق في محاسبة ولي الأمر على ما شرعه الكتاب

ثم قتل على بن دؤن صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن اعاص، فانقطع معاوية بعمله في حياته كأبه أعفاه من جهاد ماعسيه بالبحاز والعراق، وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالى والعرب في رقعة الجزيرة، فإذا هم يضرب بعضهم بعضاً ويعذبهم جميعاً بأيديهم كلم تفرقوا وتقاتلوا، وما كان في وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال

وإن القدرة التي خلصت بها لخلافة معاوية بين هذه الحوادث لتورن بميزانها الصادق إذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكفتين فماذا كان معاوية صانعاً لو أنه بويع بالخلافة في المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على المشم؟ وماذا كان صانعاً لو كان على الشام يومئذ ماعس يسوسها على سنة الملك ويرتكن فيها إلى قواعد راسخة من عهد الفاروق وقواعد راسخة من قبل الإسلام؟

ثم انفرد معاوية بالخلافة ولزمته تبعة الدفاع عن الدولة في وجه أعدائها

فوضع المؤرخون هي كفته هذه المأثرة غير مقدورة ولا محدودة، ولا منظور فيها إلى التمهيدات التي من قبيل ما قدمناه أو تربي عليها

ولاشك أن رأس الدولة الأموية قد عمر على حمايتها ولا بد له من اعتم على هذه الحماية، وإسما معنى هنا أنه حمى الدولة ليحمى ملكه ويحمى نفسه، فهذا قد يدخل في بين النيات ولا يدخل في بيان القدرة التي اعانته على عمله، ولكننا نعي أن لا نزن هذه انقدرة بميزانها الصحيح إلا إذا عرفنا ما اصططعت به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى في محراه بحكم الحوادث، وليست فيه لها يد عاملة أو تدبير مقصود فالفتح الإسلامي قد صمصع دولة الروم الشرقية وعت في أعصاها وترك فيها رجال الدين والدينا معاً يائسين من رجعة النشم إلى حوزتها، مؤمنين بنأييد الله للعرب الفاتحين عقاباً للرعاة والرعبة على خطاياهم وخطاياها

وقد سمع هرقل صيحة الوعاط بهذا النكير بأدنيه في مؤتمر أنطاكية، وعابر سورية وهو يودعها تلك الوداع الذي كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطل الأبطال.

فقبل أن يعرق لأرض السورية صاح كأنه يشج بالبكاء «الوداع يا سورية، الوداع الأخير» *Vale syria et ultimum vale*

ورسخت هذه العقيدة في قلوب خلفائه فلم تغن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وأسلحة البر والبحر التي كانوا يجمعونها، ولا تكاد تجتمع حتى تتفرق لأول صدمة أو تتفرق قبل اللقاء من أجل مدام أو عياقة^(٧) أو هام. وقد روى حييون أن حفيد هرقل خضع للتسليم لأنه رأى في المنام أنه في سالوبيكا وهي كلمة تجانسها كلمة باليونانية معناها «أعط البصر لعيرك».

وفي تاريخ ميخائيل السوري «إن المنتقم الحبار أتى بأبناء إسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ريقة الروم».

وقد روى ابن الأثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية. «إن معاوية عرا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصور التي بين أنطاكية وطرطوس خالية، فجعل عنده جماعة كثيرة من أهل الشام ولجيرة».

ولم يياس للعواهل الضعفاء من سوريه وما حاورها من آسيا الصغرى، بل ينسوا من القسطنطينيه نفسها وهموا مرات بفعل العاصمه منها إلى صقلية،

(٧) العياقة رجز الطير والتغول بأسمائها وأصواتها ومعها

وتركها العاهل القسطنطين فعلاً (سنة ٦٦٨ م) ليقيم له عاصمة في صقلية، فأوشك أن يقيمها لولا أنه قتل في سرقسطة^(٨)

واقترنت بهزيمة الروم في سورية هرائم شتى وشواغل متفرقة أيأسهم من الغلبة على الدولة الإسلامية، ومن هذه الشواغل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين في بعض الوقائع بآسيا الصغرى، ومنها الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية، ومنها انقسام لأسطول بين قيادتين إحداهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة

وربما كان اسم الدولة الإسلامية في إبان الفتح حماية لها تقوم في ترويع خصومها مقام العدد والحصون، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة في عهد معاوية الثامن الذي اعتزل الحكومة ولزم داره كما جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي «أربعين يوماً، وقيل شهرين، وقيل ثلاثة أشهر».

قال السيوطي «ولم يخرج إلى الباب ولا فعل شيئاً من الأمور ولا صلى بالناس» ولما خلع نفسه قال «أيها الناس ضعفت عن أمركم فاخشاروا من أحببتهم، ثم احتضر وهو في نحو العشرين فسألوه أن يستحلف أخاه خالد، فقال ما أصعبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها».

ولم يتفق المسلمون على خليفة يعد معاوية الثامن حتى قام عبد الملك بن مروان بالأمور سنة ثلاث وسبعين. أي بعد تسع سنين

ودولة تسلم من بيزنطة تسع سنين وهي بغير خليفة متفق عليه لا يبلغ من خطر عدوها أن يحتاج الدفاع عنها إلى قدرة خارقة من ولي الأمر فيها، وقد سمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بين مقتل عثمان ومقتل علي، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من الحصار إلى الجريرة إلى الشام إلى مصر وما يليها من إفريقية الإسلامية

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشام إنما «ستحصده» وتوطد قبل استقلال معاوية بولايتها في أيام عثمان، وأن الدفاع الأكبر عنها بعد ذلك إنما كان يتولاه من قبل الشرق ولاية الجريرة، ومن قبل العرب ولاية مصر وإفريقية، وعندهم الحد والسفن ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسألون الخليفة لمدد فيأمر من يشاء من الولاة أن يمدوهم به، ومنهم معاوية في الشام

(٨) استحصده. استحصده الرع حان له أن يحصده والجهل استحكم منه

وهذه الفترة في تاريخ الدولة الإسلامية هي التي جعلت لها تلك المهابة التي
تأسست بربطة من جدوى الهجوم عليها، وصرفت بها إلى غير هذه الوجهة من
حدودها، مع دبار القوة وانقسام الأولياء ولأعوان وضياح الثقة بالنصر، بل
باستحقاق النصر من الله

وبعد..

فالمحصل من هذه الحوادث والتمهيدات أن المؤرخ الأمين مسئول أن يحصرها
جميعاً في حسابه، وإلا كان كلامه عن «قدرة» معاوية كلاماً جزافاً لا يؤخذ به
في تمييز أقدار الرجال وخصائص الطبائع، ولا يفيدنا شيئاً في التعريف
بالوسائل التي مهد بها معاوية لحاحه والوسائل التي تمهدت له قبل مولده،
وقبل الإسلام

وتتلخص قدرة معاوية في خلانق مشهورة مترادفة أشهرها الدهاء والحلم
وعلو الهمة أو الطموح.

وهذه الخلانق هي موضوع البحث فيما يلي من الفصول قبل الكلام على
شأنه وعمله وموخر تاريخه وصعوبة الرأي فيه

(١) جرافاً الجراف بالضم والقياس بالكسر بيعك الشيء أو اشترى به إياه بلا وزن ولا كيل

الدهاء

إذا تحدث الراوية العربي عن صفة من الصفات العامة بلغ بها حد الاستقصاء، فأثبت في روايته كل ما يقع عليه احس من أخبار تلك الصفة، وذكر لنا الأعلام المشهورين بها، والحوادث التي دلت عليها، والأقوال التي قالوها أو قيلت عنهم بصددتها، والفوارق التي يحتفلون بها فيما بينهم، والألقاب التي أطلقت عليهم من جرائها، ولم يتركوا مرجعاً من مراجع الدراسة التي يحتاج إليها الباحث العصري في استقصائه الحديث بعد استقصائهم لقديم، إلا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية، فإنه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحد غيرهم من الأقدمين في الأمم، وعذرهم في ذلك واضح لا تلمهم بعده حجة. عذرهم أن التحليل النفسي كله دراسة حديثة تركبت على دراسات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها إلى ما قبل بضعة قرون.

كذلك تحدث لنا الراوية العربي عن شجاعة العرب، وهرسان العرب، وأجواد العرب، وصعاليك العرب، ودهاة العرب في الإسلام، ودهاة العرب في الحاهلية، وكل دوى الشهرة في صفة من الصفات العامة التي تتعلق بها الروايات وتتفاضل بها الأخبار.

ويبدوا لنا ونحن نقرأ كلامهم عن دهاء العرب - أنهم كانوا «مولعين» بتلك الصفة خاصة، يتحدثون بها ويستطيرون حديثها ويتريدون فيه كلما استطاعوا، كأنهم يحاورون بالدهاء حد الإعجاب، إلى حد التمسى والعطف والمشاركة في الشعور، وعذرهم في هذا أيضاً واضح من تاريخهم وقراريخ مبارعاتهم ومصالحاتهم، فإنهم كانوا يتفقدون فيها الدهاء حميماً فيصونه حيناً ولا يحدونه حيناً آخر. ولكنهم كانوا يجدون للشجاعة والفروسية في كل حين.

وسبب آخر من أسباب الوله بالحدث عن الدهاء أنه أصبح كهنًا للشجاعة أو راجحاً عليها في موازين الصفات الاجتماعية، فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة، وجد العراء وفوق العراء بشهرة الدهاء أو دعواه إن لم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الدائنة الصيت.

بالدهاء عندهم كان مزية، وضرورة، وعراء، وعطاء للخوف والحب، ودعوى

سهلة لمن يدعيها بغير برهان. أما الشجاعة فبرهانها حاصر لا سبيل للمغالطة فيه.

ولهذا يتزايد الرواة كثيراً في أحاديث الدهاء، ويوشك أن يحلوه صفة من الصفات «السلبية» التي تقتصر بنقص الشجاعة حيث نقصت في مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال، وكذا الفارئ يفهم - بدهاء - من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لا صولة له ولا خوف من عصبه وبأسه، وربما الخوف مما يحتال به أو يكيد.

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل في عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهة، ولكنهم إذا اتفقوا على دهاء رجل في سيرة حياته بخدائيرها^(١) فالغالب أن يكون على شيء من الدهاء، وإن لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات، ولم يكن مصدر ذلك الدهاء ملكة واحدة في العقل أو في الطباع.

لقد كانوا يطلقون الدهاء على وسيلة «غير صريحة» يبلغ بها صاحبها مأربه وينتهي بها إلى منفعته فكل حيلة «غير صريحة» فهي دهاء على سواء.

إلا أن الواقع أن الوسائل «غير الصريحة» لا تتفق في مصادرها العقلية فقد يعتمد الرجل في دهائه على قدرة عقلية فائقة يتسلط به على الناس فيسخرهم في مطامعه ويقودهم كما يقود المسحر «بالتويم المعنطيسي» لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لا فائدة لهم فيه على الإطلاق وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لا يفقهون، ويسأهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير ما يقوله ذلك الدهية أو يوحيه إلى شعورهم بغير مقال.

هذا هو الدهاء من الطراز الأول.

ويليه الدهاء الذي لا يعتمد على قدرة عقلية فائقة ويكيد يعتمد على قدرة «مادية» يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس «التبادل» في المنفعة المعروفة التي يفهمها المتبادلون جميعاً بغير حاجة إلى تعريض أو خداع أو إقناع.

رجل يملك السلطان أو الماء، وأساس يحتاجون إلى سلطته وماء، ولا يقدرين على بيع تلك الحاجة من غيره. فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه لأنهم كلهم

(١) بخدائيرها: جمع خدور وهو الجاس. وأخذه بخدائيره أي بأسره.

يعرفون ما يطلبونه ويعرفون وسيلتهم إليه، فلا خادع فيهم ولا مخدوع، وإن لم يكونوا جميعاً صرحاء فيما يتوسلون به أو يتوسلون إليه من أى هذين الطرارين دهاء معاوية؟

أمر طراز القدرة العقلية الفائقة على تسحر الأعوار مفادين مستسلمين مغمضى الأبصار والبصائر، أم من طراز القدرة المادية التى تعطى وبأخذ ويأملها طلاب الحاجاب؛ لأنهم يعرفون ما يحتاجون إليه ولا يعرفون طريقاً إلى حاجاتهم تلك غير هذه الطريق؟

بأى الدهاءيين تمكن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزيد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهاتهم الأمثلة فى صدر الإسلام؟

لعلنا نستطيع أن نقول: إن هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروه لقضاء مآربهم، كما نستطيع أن نقول: إنه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه. فإنهم جميعاً قد أخذوا باحراً مصموماً حيث يأخذ منهم لعوض مقدراً غير مضمون، وأياً ما كان القوم فليس دهاء معاوية هذا دهاء القدرة العقلية الفائقة التى أوقعت فى روع أعوانه زعماً نخفى عليهم حقيقته ويقادرون به إليه وهم لا يفقهون وإنما أخذ منهم وأخذوا منه على حد سواء، وإنما أعطاهم المصلحة التى يريدونها ولا ينظرون قضاءها عند غيره، ولم يتمكن من إعطائهم تلك المصلحة إلا لأنه سبقهم إلى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التى لم يكن فى وسع واحد منهم أن يصع عليها يد من أيديه

إن رواية التاريخ العربى يحدثوننا كعادتهم فى التوضيف والتقسيم، عن دهاتهم فى صدر الإسلام فيقولون: إنهم أربعة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزيد بن أبيه، ومعاوية بن أبي سفيان. ويقولون إن ابن العاص للبدية، والمغيرة للمعضلات، وزيد لكل كبيرة وصغيرة، ومعاوية للروية

وهذا تقسيم صحيح فى جعلته على الإيجاز، وقد يعرض له بعض لتعديل عند الإسهاب والتفصيل، ولكن الرأى الذى لا شك فيه أنهم جميعاً من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء، وأن دهاء الثلاثة الأولين هو الذى قدّمهم إلى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذى قادهم إليه فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يحدونها عند معاوية حيث لا يحدونها عند غيره، ولو أنهم استطاعوا أن يسارعوه الخلافه

لما سلّموه له طوعاً، ولما قنعوا منه بالدصيب الذي ارتصوه في خلافة، ولكن الخلافة كانت مطلباً بعيداً عليهم، فلم يصيغوا فيه جهودهم ويطروا إلى غية المطالب دونه فبلغوها بحمد يسير

لم تكن لأحد منهم ولاية تعتمد فتشمل سائر الولايات وتنتهي بذلك إلى الخلافة إلا زياد بن أبيه فإنه كان والياً على أقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والحد، ولكنه مخمور النسب يدعو به بائن أبيه قبل أن يسببه معاوية إلى أبي سفيان، ولن يسلس رماح الخلافة لرحل مثله إلى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من دون معاوية في النسب والمكانة.

أما ابن العاص والمغيرة بن شعبه فقد كانا من أحاد الرعية يوم شرب الدراع على الخلافة بين عميد بني هاشم على بن أبي طالب وعميد بني أمية معاوية بن أبي سفيان، ولم يكن لأحدهما جند ولا مال ولا عصبة تدافس لعصبة الهاشمية أو العصبة الأموية، فهما خيقلان أن ينظرا إلى المطلب الميسور حيث تبسّر، وقد نظرا إليه فلم يعرفا له طريقاً أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل عليّ رضوان الله عليه

وقصة كل رجل من هؤلاء الدهاة الثلاثة لا تدع محلاً للظن بأنهم سيقوا إلى نصره معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حير الدهاء، بل هي حرية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية في المبادلة، وأنهم أخذوا منه فوق ما أعطوه، وأنه هم قد أعطاهم شيئاً في اليد حين كان عطاؤهم كله شيئاً في التقدير، إما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور

دعا عمرو بن العاص ولديه عبد الله ومحمداً فقال لهما: إني قد رأيت رأياً ولستما بالذين ترداني عن رأبي، ولكن تشيران عليّ إني رأيت العرب صاروا عزيزين يصطربان وأنا طريح نفسي بين جراري مكة ولست أرضى بهذه المبدلة، فإلى أي الفريقين أعمد؟

قال عبد الله - وهو من أهل التقوى، إن كنت لا بد باعلاً فإلى عليّ - قال عمرو إني إن أتيت علياً يقول لي إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخطبني بدعائه ويشركني في أمره وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي فقال لهما عمرو أما أنت يا عبدالله فقد اخبرت لأخرتي، وأما أنت يا محمد فقد اخترت لديي.

ويروى أنه لما استشارهم قال له عبد الله إن انبجى عليه السلام قد توفي

والشبحان بعده وهم راصور عنك، فأرى أن تكف يدك وتحلس في بيتك حتى
يحتجم الناس وقال له محمد أنت ناب من أنبياء العرب، فكيف يجمع هذا الأمر
وليس لك منه صوت؟ فأجابهما بما تقدم وأنى معاوية فوجدهم يطلبون دم
عثمان فمضى معهم يقول، اطلبوا دم الخليفة المقتول

والمشهور في رواية صاحب الإمامة والسياسة ابن قتيبة أن معاوية كان
غافلاً عن شأن عمرو وعن خطره في معونة أي العريقين فأعرض عنه، حتى مبهه
عتبة بن أبي سعيان إلى شأنه وخطره مكتب إليه يقول «أما بعد، فقد كان من أمر
علي وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من
أهل البصرة، وقدم على جرير بن عبد الله فيبيعة على وقد حبست نفسي عليك
فأقدم على بركة الله».

وتردد عمرو قليلاً بين شد الرحال وحط الرحال فقال له غلامه وردان - وهو
من الموصوفين معه بالدهاء، أما إليك إن شئت بدأتك في نفسك اعتزمت الدنيا
والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة،
فأنت واقف بينهما، فقال عمرو ما أخصأت ما في نفسي، فما ترى يا وردان؟ فقال،
أرى أن تقيم في منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت في ديسهم، وإن ظهر أهل الدنيا
لم يستعنوا عنك، فقال عمرو الآن حين شهرتني العرب بمسيرى إلى معاوية؟

وقدم عمرو على معاوية مساومه على رضاه، فلم يقنع بما دون ولاية مصر
مدى الحياة، وهذه صفقة كأنها صفقة المستصر الذي يملئ شروطه في حومة
الحرب، لأن ابن العاص كان ولياً على مصر فعزله عثمان، ولم يرل واجداً على
عثمان لذلك، حتى قيل: إنه كان يحرص عليه ويحادر بين أنصاره، فإذا جاء
الرجل قوماً يطلبون دم عثمان فخذ منهم ما أباه عثمان عيه وإنما هو الرغم
ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال!

وشرّ على معاوية أن يحييه إلى هذا المطلب لصحم «فتلكأ معاوية - كما جاء في
الإمامة والسياسة - وقال ألم تعلم أن مصر كالشام؟ قل بلى، ولكنها إنما تكون لي
إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا طلبت علياً على العراق فدخل عتبة بن أبي سفيان
على معاوية فقال، أما ترعى أن تشتري عمراً بمصر؟ إن هي صنعت لك بيتك لا يعلب
على الشام فلما سمع معاوية قول عتبة بعث إلى عمرو فأعطاه مصر وكتب في أسفل
الكتاب ولا يفتقر شرط طاعة فكتب عمرو ولا ينقص طاعة شرطاً»

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالباً غير مغلوب، ومهم ما يبتغيه فقصده إليه ولم يكن معاوية يهتم ما يبتغيه إلا بعد ممانعة واستعصاء. وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعة ألوية نواء له، ولواء لكل من ولديه، ولواء لغلّامه وردان. يقال في مصطلحات عصرنا عن الحيلة التي لا تخفى ولا حاجة بها إلى إخفاء إنها «لعب على المكشوف» كأسها هي لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره واتباعه في اللعب منها لا محيد عنه، وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية.

قال عمرو لمعاوية «أترى أننا خائفنا عليكاً لفضل منا عليه؟ لا والله إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وإيم الله لتقطعن لي قطعة من دميّك وإلا نأبدتك^(٢)». وعلى هذه النخلة «المكشوفة» بدأت المعاملة بين الرجلين، وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية، بالقياس إلى ما بذل فيه

أما المغيرة بن شعبة فقد كان يبيع سمكاً في البحر ويشترى به سمكاً مطبوخاً شهياً على المائدة

عزله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قوماً شهدوا عليه أنهم وجدوه على ربيعة مع امرأة غير امرأته، وقال هو إنها امرأته، وإن الأمر القيس على الناظرين لشبه بين المرأتين ولم تثبت التهمة عليه ثبوتاً يوجب إقامة الحد. ولم تسقط عنه سقوطاً يريى الشبهة، فعزله الفاروق وأبقى زماً بغير عمل كأنه يؤدبه ويستتبيه. ثم بدّله أن يعيده إلى ولايته، فدعاه إليه وشد عليه ليحتبين الشبهات حتى الطنة، وولاه الكوفة مرة أخرى، فلما قام عثمان بالخلافة عزله، فاعتزل السياسة حتى قتل عثمان، وبويع على بالخلافة في المدينة، فذهب إليه يمهّد في العهد الجديد للزلفى^(٣) عند الإمام وعند صاحب الأمر بالشام معاوية - في وقت واحد، وأشار على الإمام بإقرار معاوية في ولايته ليدس له بالولاء ثم يعزله متى شاء. فلما أبى الإمام أن يقره عاد إليه في اليوم التالي فقال «إني أشرت عليك أوم مرة بالذي أشرت وخالفني فيه، ثم علمت أن الصواب فيما رأيت، فأعزلهم أي ولاية عثمان - واستعن بمن تثق به فإنهم أهون شوكة مما كان»

(٢) ما يدرك ما يد الرجل صاحبه خالعه وفارق والعدو الحرب أعظمه بعزمه على القتال وكاشفه به

(٣) الرلعي القرية، والدرجة والميزلة

وعاد المغيرة إلى عزلته يترقب، ثم قصد إلى معاوية بعد رححان كفته في أمر الحكمين غير محازف بشيء بعد استقرار أمر الشام - على الأقل - لمعاوية وحزبه، فولاه معاوية إمرة الحج بعد انفراده بالدولة وكان المغيرة يطر إلى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص إلى ولايته الأولى على مصر، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب إليه يبدس النصيحة التي يأخذ منها أكثر مما يهب، وقال له: أتستعمل عبدالله على الكوفة وأباه على مصر؟ إنك بين ما بين الأسد! فاستمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه في مكانه، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة مردها بمثلها، ولم يطلب إعادة عبدالله إلى ولايته، بل قمع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج واصططح النصيحة للحليفة الجديد فجاءه يقول: إنك تستعمل المغيرة على الخراج هيأخذه ولا تستطيع أن تدبزع منه، والرأي أن تولى على الخراج رجلاً يحافك ولا تبالي أن تعزله متى شئت، وأن تستعمل المغيرة على لصلاة والإمارة، فلا يقرى عليك بغير ما. فأتبع معاوية مشورته غير كاره، لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهيتين.

ثم استقر الأمر لمعاوية فهان عليه خطب المغيرة وهم بعزله، فسمى^(٤) الخبر إلى المغيرة من عيونته^(٥) حول معاوية، وأشفق من عضاضة^(٦) العزل، فأثر أن يذهب إليه معتزلاً، وأن يحتال مع ذلك حيلته التي يرغب بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرعوب فيه.

شخص إلى دمشق فاختلى ببريد كأنه يلقاه عرساً، ووسوس له أن يطلب إلى أبيه تسميته لولاية العهد، ررين له الأمر قائلاً: «إن أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا، وبقي الأبناء وأنت من أفضلهم، فلا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟ قال أو ترى ذلك يتم؟ قال نعم. فدخل يريد على أبيه وأخبره بمقالة امغيرة، فتعجل معاوية لعاءه واستدعاه ليطمئن إلى حقيقة الخبر، وابتدره سائلاً ما هذا الذي يقوله يزيد؟ قال إني يا أمير المؤمنين قد رأيت ما رأيت من سفك الدماء بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف فاعقد له البيعة بعدك، فإن حدث بك حدث كن كهفاً لباس وحفاً منك ولا تسعد دماء ولا تكون فتنة. قال معاوية ومن لي بهذا؟ قال أكفيك أما أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بين

(٥) عيونته. جواسيسه

(٤) يسمى بى إليه بعه

(٦) عضاضة منه

هدير المصريين أحد يخالف... فأمره معاوية أن يرجع إلى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته في ذلك، ثم يرى ما يرى.

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات لقد وصعت رجب معاوية في عر^(٧) بعيد الغاية وفتقت عليهم فبقا لا يرتق^(٨) أبداً ثم أحابه ناس من قبيله إلىبيعة يزيد فأرسل منهم عشرة إلى دمشق، ولم يرسل سائرهم ليمد في حبل المساومة، وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب إليهم ألا يعطوا بإعلان رأيهم، ولم يكن إعلان هذا الرأي من أرب المغيرة، لأنه باق في ولايته ما احتاج الأمر إلى بقاءه قبل إعلان البيعة والاتفاق عليها، رمى كل أولئك كان المغيرة كاسباً لا يفقد شيئاً يقدر على استبقائه، فإن خرج مستعقياً فذلك خير من خروجه معزولاً، وإن كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد محدية له عيما أراد، فقد ربح ولم يخسر، وبيع السمك في البحر والشبكة من عند غيره، وإن أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابعه - وهو أبعد العروض - فقد كسب الوالي المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية، لأنه مفقود قبل ذلك. ولعله يرمى من هذا التلويح بولاية العهد إلى استشارة الأمير المحروم وإغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له في حجاب الحرم^(٩)، إن لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان، ويقال بحق في جميع هذه الأحوال. إن المخدوع من الرجلين - معاوية والمغيرة - لم يكن هو المغيرة إن كان لا بد بينهما من مخدوع.

وكان زياد بن أبيه آخر المجايعين من الدهاة الثلاثة، فلم يستطع معاوية أن يقعه بترك فرصة من العرض التي كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة، ولم يقبل على معاوية وله رجاء قط في الإعراس عنه، مع أنه كان أول المطبور إلى بيعتهم في تقدير بني أمية، لأنه كان - كما نقول في عرف هذه الأيام - ولداً شرعياً لأبي سفيان، وأخاً لمعاوية من أبيه.

ولاه علي بن أبي طالب فارس وكرمان، فبرس إليه معاوية يتوعده، فقام زياد في لباس خطيباً يعلط أجواب ويرد الوعيد بمثله، وجعن يقول في خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية «العجب كل العجب من ابن أكلة الأكباد ورأس النفاق يحوطني بقصده إياي ويبيدي وبينه ابن عم رسول الله في المهاجرين

(٨) يرتق - يرتق الشيء سده، صد فتقه.

(٧) غير ركاب الرجل من جلد.

(٩) الحرم بكسر الحاء المنع.

والأنصار، أما والله لو أسر لي في لقائه لوجدني أحمر^(١٠) "مخشياً ضراباً بالسيف" فكتب إليه معاوية يترصاه ويلين القول، ودعاه بزياد بن أبي سفيان، ثم قال: «كأنت لست أخى، وليس صخر بن حرب أباك وأبى، وشتان ما بيني وبينك. أطلب بدم ابن أبي العاص وأنت تقاتلني، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكتب كتاركة بيضها بالمرء وملحمة بيض أخرى جناحها، وقد رأيت ألا أؤخذك بسوء سعيك وأن أصح رحمك وأبتغي الثواب من أمرك فاعلم - أبا المغيرة - أنك لو خصت البحر في طاعة القوم فتصرب بالسيف حتى يقطع متنه لما ازددت منهم إلا بعداً، فإن بنى عبد شمس أبعض إلى بنى هاشم من الشفرة^(١١) إلى الثور الصريع وقد أوثق للذبيح هارح - رحمك الله - إلى أصلك واتصل بقومك، ولا تكن كالموصل يطير بريش غيره. فقد أصبحت ضال النسب، ولعمري ما فعل بك ذلك إلا الحاج^(١٢) فإن أحببت جامبي ووثقت بي بإمرة، وإن كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففصر جميل^(١٣) ولا على ولا لي، والسلام»

على أن زياداً لم يستحب لدعوته حتى قتل الإمام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله في حياته، ولبت معاوية قلقاً من جانبه لا يأمن مكره وجراته، يقول لخاصته ما يؤمسي أن يبايع لرجس من أهل البيت فإذا هو قد أعاد على الحرب جذعة^(١٤). فتقدم المغيرة يتوسط بينهما ليشد ساعده بزياد في كيد لابن العاص، واستأذن معاوية في إتيانه فأذن له أن يلقاه ويتنطف في خطابه، وجاءه المغيرة على رأس من خلافة بنى هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب في خلافة بنى مية واستحاب زياد للمغيرة في أمر البيعة لمعاوية، وتمنع بعد ذلك في أمر البيعة ليزيد بولاية العهد، وأنفذ رحلاً من ثقاته إلى الخليفة ليوصيه بالأداء «فإن دركاً^(١٥) في تأخير خير من أداء في عجلة» ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على مرار هؤلاء هم الدهاة الثلاثة، لم يغلب أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية، وإنما أفادوا منه جميعاً فوق ما أفادوه

(١٠) أحمر أحمر هنا بمعنى شاق ومنعب.

(١١) الشفرة بالفتح السكين العظيم.

(١٢) اللجاج: التماسي في الأمر ورفض الامتناع عنه.

(١٣) جذعة: يهيجني، وأعاد الحرب جذعة أي جديدة كما بدأت.

(١٤) دركاً الإدراك والحق.

وتذكر في هذا المعرض بيعة الحسن، فلا يقو قاتل من امطيين في دهاء معاوية أو من المقصدين في أمره. إنه كان عملاً من أعمال الدهاء دخلت فيه الحيلة على الحسن وصحابته فإنما بايع الحسن بعد أن ثار به جده واجترأوا على نهب معسكره، حتى امتدت أيديهم إلى البساط الذي يجلس عليه وجرحوه في فخذه.. وقيل في أسباب تلك الفتنة ما قبل من مختلف الأسباب والإشاعات، فزعم بعضهم أنها نشبت في المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قيس بن سعد، وزعم بعضهم أنها شبت فيه بعد إشاعة التسليم وقبول المصاحبة بين الحسن ومعاوية ولا أمان على كل حال لأنصار يحترقون على إمامهم بالذهب والسطو لسبب من الأسباب كأنما ما كان، بعد ما تقدم من عنث هؤلاء للإمام في حياته وشقاقهم فيما بينهم، وستبداد كل منهم بفتواه في أمر الدين وأمر السياسة والولاية فلولم يكن معاوية على حظ من الدهاء - قل وأكثر - لما استعصى عليه أن يظهر من الحسن بالمصالحة على شروطه فضلاً عن المصالحة على الشروط التي أمليت عليه

وم يذكر أحد غير هؤلاء من السابيين المعدودين الذين قصدوا إلى معاوية بالبيعة أو المواررة إلا كان على عزم بما يقصده قبل لقاء معاوية، فلا خداع في شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا انخداع

جاءه عبيد الله بن عمر ففرح به فرحاً شديداً، وقال لعمر بن العاص ما يبيع عبد الله أن يحببنا كما جاءنا أخوه؟ قال عمرو إنما جاءك عبيد الله لأب يخشى قصاص ابن أبي طالب منه لقتله الهرمزان بغير قضاء، وكان عبيد الله قد قتل الهرمزان، لأنه شوهه مع أبي لؤلؤة قبل مقتل أبيه، وشوهه معه الحبحر الذي حملة أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل العاروق فأشار الإمام بالقصاص منه، وأبى عثمان ذلك، فكيف يقال قتل عمر بالأمس، ويقتل ابنه العوم، فلما بوبع الإمام بالخلافة في الحجاز خرج عبيد الله إلى معاوية وتنادى مع المصادين بشار عثمان، وكان للإمام في بعض المواقف بين الحيشيين الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان وجعلني أطلبك بدم عثمان..

وذهب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه يطلب منه مالاً لسداد ديون عليه فأنظره

موعد العطاء له ولسانر أصحاب الأعطية، فذكره وذهب إلى معاوية، فقضى له جميع ديونه، وقال له بعد أيام أنا خير لك من أخيك . قال عقيل، صدقت! إن أخى أثر دينه على دنياه، وأنت أثرت دينك على دينك، فأنت خير لى من أخى، وأخى خسر لنفسك منك!

فكل دهاء يذكر لمعاوية فإما يذكر إلى جانبه رعد^(١٥) أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا يسخرع عنها فى مبدلة النفع بينه وبينه، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء، وكان نقش الخاتم الذى تختتم به بعد ولايته «لكل عمل ثواب» ولهذا أعياء كل الإعياء أمر المخالفين الذين لا تعمل فيهم رقية^(١٦) المال والولاية فامتنع عليه عيد الله بن عمر، لأنه لم يسخرع بالدرهم والدينار «وإما يسخرع الرجال بهما» كما قال، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوي الأمير الذى حفظ عهده لعلى بن أبى طالب قبل عزله إياه وبعد عزله، وظل حافظاً لهذا العهد بعد مقتله رضوان الله عليه، ومصالحة الحسن لمعاوية، وانقضاء الولايات واحدة بعد أخرى عن أعوان بنى هاشم، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل إلى قيس صحيفة بيضاء موقعة بتوقيعه مختومة بحاتم الخليفة يكتب فيها ما يشاء، فلم يكتب فيها إلا عهداً بالأمان لأصحابه الدين بصروا عليها والحسن بقيده، وجلس الخليفة بالكوفة يتلقى البيعة من مخالفيه القمماء، فقال قيس إن كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية! فقال له مه^(١٧) رحمك الله عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم قال قيس لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك، فأبى الله يا بن أبى سفيان إلا ما أحب، قال معاوية فلا يرد أمر الله! فأقبس قيس على الناس بوجهه فقال معشر الناس! لقد اعتضمت للبشر من الخير، واستبدلتهم الدل من العر، والكفر من الإيمان، فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين، وابن عم رسول رب العالمين، وقد وليكم الطليق بن الطليق، يسومكم^(١٨) الحسف ويسير فيكم بالعسف^(١٩)، فكيف تحفل ذلك أنفسكم، أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون! فجث معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال أقسمت عليك. ثم صفق على يده وبأدى الناس. بايع قيس! فقال كذبتم والله ما بايعت وصاع صوته بين الصياح والصحيح

(١٦) رقية: تعويذة

(١٨) يسومكم الحسف: يكلفكم المشقة والذل.

(١٥) رعد: بكسر الراء. المعصاء والصفاة

(١٧) مه: اسم فعل أمر بمعنى اكف!

(١٩) بالعسف: الجور والظلم.

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمر وقيس بعد سعد بمعرل عن حرب الدولة الجديدة إلا من أثر الجهد في عرو الأعداء ولم يجد علماً للجهد غير علم الخليفة القائم بتجديد الجند وتحريض السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصره والأكاسرة، وبطلت كل حيلة من حيل «الثواب» بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء الغوم الدين كانوا بحق عند المسلمين «بقية الباس».

إلا أن معاوية كان يصطبغ الحيلة التي تحديه في كفاح خصومه، وإن لم تكن من قبيل الغلبة بقوة النفس وصولاً «لشخصية» الطاعية على من دونها في البأس والمضاء.

كانت له حيلته التي كررها وأتقنها ويرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذييل بين خصومه بإلقاء الشبهات بينهم وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرياه.

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكن الناهض «انفطري» بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بينهم، كما كان يحدث بين المعيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هبن لا تخفى خبيثته على الرجلين، فكان يسمع لكل منهما في الآخر، ويطيع كليهما في دسه وإغرائه، ليعلم بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه، فلا يتعفا عليه، وما هما بمتفقين، ولا مأرب لهما في الاتفاق، بل المأرب الذي يحرصان عليه معاً أن يقوم بينهما حصار يعطينهما ما يسألان ويكيد بكيدهم كما يحبان.

ودأبه في الواقعة بين أهل بيته كدأبه في الواقعة بين النظراء من أعوانه، فلم يكن يطيق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبي سفيان، ولم يكن يهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بنى العاص. قال ابن الأثير في أخبار سنة أربع وخمسين «وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان، وكان سبب ذلك أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليحعلها صافية ويقبض منه ذلك. وكان وهبها له - فراجع سعيد ابن العاص في ذلك، فأعد معاوية الكتاب بذلك، فلم يفعل سعيد، ووضع اكتابين عنده، فعزله معاوية وولى مروان، وكتب إليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره، فأخذ الفعلة وسار إلى دار سعد ليهدمها، فقال له سعيد يا أبا عبد

الملك، أتهدم دارى؟ قال نعم كتب إلى أمير المؤمنين، ولو كتب إليك فى هدم دارى لفعلت. فقال ما كنت لأفعل قال بلى والله! قال كلا وقال لغلामه ائتني بكتاب معاوية، فجاءه بالكتابين، فلما رأهما مروان قال كتب إليك فلم تفعل ولم تعلمنى؟ قال سعيد ما كنت لأمن عليك، وإنما أراد معاوية أن يحرص بيننا، فقال مروان. أنت والله خير منى وعاد ولم يهدم دار سعيد وكتب سعيد إلى معاوية العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابنا أن يضعف بعضنا على بعض فوالله لو لم يكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم ورجعتنا كلمتنا لكان حقاً على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك فكتب إليه معاوية يعتذر ويتصل^(٢٠) وأنه عائد إلى أحسن ما يعهده وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيراً، فقال له معاوية ما باعد بينه وبينك؟ قال غافنى على شرفه وخفته على شرفه قال فعاد له عندك؟ قال أسره^(٢١) شاهداً وعائلاً ومضى معاوية على هذه الخطة التى لا تتطلب من صاحبها حظاً كبيراً من الحيلة والروية ولعلها تناقص الدهاء فيما ينكشف من عللها التى لا تدق على فهم أحد، فلو أنه استطاع أن يجعل من كل رخص فى دولته حزباً مائلاً لغيره من رجال الدولة كافة، لفعل، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعات، ولكن العبرة لقارئ التاريخ فى زنة الأعمال وأرجال أن تجد من المؤرخين من يسمي عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة، لأنه فرق الأمة شيئاً شيعاً فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولت الاتفاق، وما لبث أن تركها بعده تختلف فى عهد كل خليفة شيئاً شيعاً بين ولاية العهود

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليصرب بعضهم ببعض ويتقى شر فريق منهم بشر فريق، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدماً ومؤخراً، وبين كل فريقين وعلى كل حال وفى كل موقف كأنها عرض مقصود لداته أو كأنها خير «مطلق» لا شريعة.

وبدأ بهذه الخطة فى السياسة العامة على عهد عثمان، فخص المهاجرين بدعوته قبل مرجعه إلى الشام، وقام بينهم يقوون بعد أن دعا عثمان للمقال «أما بعد يا معشر المهاجرين وبقيه الشورى إياكم أعنى، وإياكم أريد» ثم أتبع ذلك

(٢٠) يتصل إلى فلان من الدس. خرج ويبر.

(٢١) أسره الأسر العرة وصحابة الخلق

بكلام طويل في معناه، يقول فيه «يا معشر المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله إياه بأنتم أهله، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومبها، وإنما ينظر التابعون إلى السابقين والبلدان إلى البلدين، حين استقاموا استقاموا، وإيم الله الذي لا إله إلا هو لنر صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين، ولا البلدان للبلدين، وليسلمن أمركم وليبقلن الملك من بين أظهركم، وما أئتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض.»

ويروى بعض المؤرخين أنه لما استقر له الأمر، وبويع له بالخلافة، وجاءه وفد الأنصار، أمر أن يدعى كل منهم باسمه إلى حصرك بمشورة عمرو بن العاص الذي كره أن يدعى لجمع كله باسم الأنصار، ولكن عمرو بن العاص لم يكن معه يوحى إليه حين خص المهاجرين بتلك الدعوة قبل أن يفتحا على شيء في أمر الدولة، ولم يكن سلطان عمرو هو الذي احتسب به الأخطال حين اجتراً على هجاء الأنصار فقال

ذهبت فريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فإنما اجتراً الشاعر هذه الجرأة بما علم من رضا الخليفة وأمانه أن يصيبه مكروه من جراء ذلك الهجاء

ولم تقف خطة انفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة، لأنه عمد إلى أهل مكة والطائف في بقعة واحدة ففرق بينهما حين أثر الثقفيين. وهم أهل لطائف بزلعه وسن لمن بعده سنة هذا الإيثار، فكان من رجال بني أمية المعيرة ورياء والحجاج ومحمد بن القاسم ورهط من الأقربين والصنائع^(٢٢)، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلعائه كالحرس على أهل مكة ممن بقى فيها غير الأمويين السفيايين، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسامهم بين بني حرب وبني العاص، وقسم بني العاص بين بيت سعيد وبيت مروان

ومن خطط التفرقة التي حسنت لديه في حينها، وساءت عقباها بعد حين، وبعد كل حين - ذلك انزاع امشثوم بين اليمانية والمصرية، أو بين الكلبيين والقيسيين على اختلاف النسب والعاوين، وقد خبط^(٢٣) الأكثر من مؤرخي

(٢٢) الصنائع جمع صنيع أو صبيعة نقول هو صبيح أو صبيعتى ي الذي ربيبه وخرجه

(٢٣) خبط سار على غير هدى

العصر في تعليقه بمختلف العطل، إلا العلة المقصودة التي دبرت في ذلك العصر أسوأ تدبير، ولعل المديرين كانوا يحسبونه يومئذ أحسن تدبير.

والعصبية في القبائل العربية خليفة لا يهمل في حساب المآزعات والمآظرات في زمن من الأزمان، ولكنه من السخف أن يقال، إن العصبية كانت علة انتصار اليمامية لبني أمية على بني هاشم، وإن اعتراض الهاشميين بالنبوة هو الذي أحبط عليهم صدور القبائل من غير المضريين الذين ينتمى إليهم بيت النبوة من بني هاشم.

فقد كان بنو هاشم وبنو أمية جميعاً من قريش وكان اعتزاز بني أمية بالنسبة القرشية أظهر وأحقر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم - دولة الأمويين - إذ كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب في استحقاق الخلافة، وقد كانت اليمن هي القطر الوحيد الذي رحب بهواري الإمام علي في أول بيعته، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم - بين أوس وخرج - ينتمون إلى اليمامية، وكانت كعدة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه رمزاً طويلاً بعد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية، وكان أشد أعوان العاطميين بعد ذلك من اليمامية في المشرق وفي المغرب، ولما تلاقي جيش علي وجيش معاوية في وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة تقاوس في كلا الجيشين. قال ابن الأثير «وسأل علي عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقعهم، فقال للأرد أكفوب الأرد، وقال لختعم أكفوبا خثعم، وأمر كل قبيلة أن تكفي أختها من الشام، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرمها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد، مثل بحيلة لم يكن بالشام منهم إلا القليل صرفهم إلى لحم.»

فالتراع بين اليمامية والمصرية لم يكن مراعاة على فخر النبوة، ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره، وإنما كان نزاعاً بين سلاحين أو بين جيشين متنافسين في مكر واحد، عدا ما هنالك من النزاع بين الفكرين، ونحن نرى في عصرنا - وهي كل عصر - أمثال هذا التنافس بين الأسلحة كلها حبح ولالة الأمر إلى فريق منهم دون فريق، وقد رأينا هذا التنافس بين سلاح البر وسلاح البحر وسلاح الهواء في الجمهوريه القصيه وكلهم من حمس واحد أو قوميه واحد، لأن ولاه الأمر هناك يؤثرون سلاحاً على سلاح في الحصار يبدعهم على السد الذي يستندون إليه

لقد كانت عصبية النسب عنواناً من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن وقبائل مصر في دولة بنى أمية بالشام، ولكن هذه العصبية لم تكن لازمة كل الروم لإثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة، وقد حدث مثله بين قبائل اليمن، وحدث مثله بين قبائل مصر على حسب الطوارئ والمناسبات، ولو كان الحند كلهم من قبيلة واحدة وأراد ولي الأمر أن يثير المفاصلة بينهم، لما أعياه ذلك كما حدث في هذا العصر بين الشعوب الأمريكية في الجنوب على ما قدمناه

ومعاوية كان يريد المزاج بين اليمانية والمصرية، ولم تكن له من خطة ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة إلى هؤلاء وتارة إلى هؤلاء، وقد كان هو نفسه من المضريين ولكنه كان يبدو في بعض الأحيان كأنه من أبناء اليمن عدو لأبناء مصر، وطابت له هذه السياسة فاستمر^(٢٤) مرعاهم الوخيم حتى كانت عقبها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين.

وأبرع ما برع فيه من ألوان الدماء إلقاء الشبهة بين خصومه في زمن كانت فيه هذه الشبهات من أيسر الأمور لكثرة التقلب والتحول في الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس، وأنصار لأمس وخصوم اليوم.

كان إذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم فاستعصى عليه كتب له رسالة مودة وثناء وأنفدها مع رسول يحمل إليه الهدايا وأرشا كأنها حواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والقدر برؤسائه من دولة الروم، ويخرج الرسول العربي من طريق متباعد كأنه يتعمد الروغان من العيون والحواسيس، فإذا اعتقله الروم - ولا بد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى إليه - وبعت الشبهة على ابطريق لمقصود، وتعدر الاهتمام إليه من قومه بعد ذلك، وعزلوه وأبعدوه إن لم ينكلوا به أشد النكال.

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه في نفس الإمام وساعدته الحوادث على خلق هذه الريبة كما أجمنا ذلك في كتابنا عن عبقرية الإمام «عشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالصعيفة» فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية، فأحازوه ولم يحاربوه وهو في سبعة نفر لا يحموه من بطشهم، فحسبوه حين أحازوه من العثمانيين

(٢٤) استمر: استمر الضيف الطعام. استطابه

الهاربين إلى مصر من دوة عى فى الحجار، ولم بيع المصريون علياً بفى
العثمانيون لا يبيعون ولا يثورون وقالوا لسعد أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر،
فأمهلهم وتركهم رادعين حيث طاب لهم المقام بحوار الإسكندرية وأراد الإمام
أن يستوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية، فأمر قيساً أن يحارب المنخلفين عن
البيعة فلم يفعل، وكتب إليه يقول: إننا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن
معتزلون، والرأى تركهم...»

وتعاطفت بعد ذلك الطيور فى زمن صدقت فيه أكثر هذه الطيور. فأما معاوية
فلم يكن يكرهه ^(٢٥) الظن ولا الشبه بالظن . لأنه يعلم المنفعة التى يعطيها
والمنفعة التى يريد أعماله من أجلها، وأما الإمام فلم تكن له عصمة من الظن
غير الحيلة وغير التجربة، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها
مما سينجلي عنه مستقبل مجهول.

هذه الحيلة حيلة الشبهة - كانت من أسجح الحيل فى سياسة معاوية مع
خصومه؛ لأنه زمن الشبهات وهى كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم، وقد نجحت
ونجعت ^(٢٦) بفضل واحد أحدهما فضل التدبير والاخر فضل الحوادث
بغير تدبير.

وحيلة أخرى لا نجزم بها، ولكننا نشير إليها فى مكانها مما رواه الرواة عن
الوسائل «الخفية» التى توسل بها معاوية للخلبة على خصومه ومناقضيه،
وحسبت يومئذ من ضروب دهائه، أو من ضروب كيده وهو مرادف عند عامة
القوم لمعنى الدهاء.

ومات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذى ولاه الإمام مصر بعد عزل قيس،
ومات عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعاً بعير علة ظاهرة، فسبق إلى
الناس ظن كاليقين أنها غيلة مدبرة، وأن صاحب الغيلة من كان له نفع عاجل
بتدبيرها، وهو معاوية

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر أنه قال «إن لله جوداً من عسل» .
وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تمهه غير ساعات

(٢٥) يكرهه كره الأمر الرجل اشتد عليه وصايقه

(٢٦) نجحت. جمع الدواء فى العين، والوعظ فى السامعين أثر وأما

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المشهور

قال في كتابه مقاتل الطالبين: «أرسل معاوية إلى ابنة الأشعث إني مزوجك بـيريد ابني علي أن تسمى لحسن بن علي وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن فسوغها^(٢٧) المال ولم يزوجه من يريد، فخلف عليها رجب من أهل طلحة فأولدها، فكان إذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيروهم وقالوا: يا بني مسمّة الأزواج».

وقال ابن الكلبي عن أبيه في سبب موت الأشعث: «إنه لما سار الأشعث إلى مصر أخذ في طريق الحجاز، فقدم المدينة فجاءه مولى بعثمان بن عفان يقال له نافع وأظهر له الولد، وقال له أنا مولى عمر بن الخطاب، فأدناه الأشعث وقريه ووثق به وولاه أمره، فلم يزل معه إلى عين شمس، فلما وصل إلى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المذكور العسل فمات منه... وقال ابن سعد إنه سم بالعريش، وقال الصوري: صوابه القلزم...».

وجاء في أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الأثير «خرج الأشعث يتجهز إلى مصر وابنت معاوية عيونه بذلك معظم عليه وكان قد طمع في مصر فعلم أن الأشعث إن تمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث معاوية إلى المقدم على أمر خرج بالقلزم وقال له إن الأشعث قد ولي مصر، ومن كفيتمته لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت نخرج الحايصات وهي رواية الطبري الجايستار - حتى أتى القلزم وأقام به، وخرج الأشعث من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم وأقام به استعجه ذلك الرجل فعرض عليه البروق فترل عنده، فأتاه بطعام، فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سم، فسقاه إياه، فلما شربها مات... وقام معاوية خطيباً ثم قال: «أما بعد فإنه كانت علي يمينان فقطعت إحداهما بصفين - يعنى عمار بن ياسر - وقصعت الأخرى اليوم - يعنى الأشعث»

واتفق ابن الأثير والطبري على رواية واحدة في الجملة عن موت عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد «وكان سبب موته - كما جاء في ابن الأثير - أنه كان قد

(٢٧) سوغها: سوغه ما أصاب. جعله هيباً له

عظم شأنه عند أهل الشام، ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه، ولقباته في بلاد الروم ولشدة بأسه، فخافه معاوية وخشي منه، وأمر ابن أثال النصراني أن يحال في قتله. وصمن له أن يصنع عنه خراج ما عاش، وأن يوليه خراج حمص، فلما قدم عبدالرحمن من الروم دس له ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوقى له معاوية بما ضمن له، وقدم خالد بن عبدالرحمن المدينة مجلس يوماً إلى عروة بن الربيع، فقال له عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقال من عنده وسار إلى حمص فقتل ابن أثال فحضر إلى معاوية فحبسه أياماً ثم غرمه ديته، ورجع خالد إلى المدينة فأتى عروة، فقال عروة: ما فعل ابن أثال؟ فقال قد كفيتك ابن أثال ولكن ما فعل ابن جرموز؟ يعني قاتل الزبير فسكت عروة^(٢٨) رسيق الطبري فقال «ذكر جرير وغيره أن رجلاً يقال له ابن أثال - وكان رئيس الدمة - سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك من أمر معاوية له في ذلك ولا يصح، ورثاه بعضهم فقال.

فبوك الذي قاد الحيوش مغسراً إلى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبهته بعد هجعة بقرع لجام وهو أكتع^(٢٩) ناعس
وما يستوى الصفاي صف لخالد وصف عليه من دمشق للبرانس^(٣٠)
وقد ذكر أن خالد بن عبدالرحمن بن خالد قدم المدينة، فقال عروة بن الربيع «ما فعل ابن أثال؟» فسكت. ثم رجع إلى حمص فثار على ابن أثال فقتله، فقال «قد كفيتك إياه، ولكن ما فعل ابن جرموز؟ فسكت عروة، ومحمد بن مسلمة في قول».

رشاعت اشوائع بمثل ذلك عن آخرين من أعداء معاوية ومناقسيه، يملى للناس في تصديقها أن هؤلاء الأعداء ماتوا بغير غلة موصوفة في الموعد الذي تبعه معاوية وتترتب عليه سياسته التي كان يرجئها إلى مواعدها فالحسن يموت قبل بيعة يزيد، كي لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر، وعبدالرحمن بن خالد يموت وهو في وج سمعته بين قوم أعجبوا من قبله بأبيه، ويوشك أن يتجمع حوله الناقصون من أهل الشام وأهل الكوفة والحجاز. وكله مما يذكر ولا يعجل بنفيه ولكنه لا يفوم عليه دليل

(٢٨) أكتع، الاكتم من رجعت صاحبه إلى كفه

(٢٩) البرانس، البريس بضم الباء والميم، ردء خاف يبهسه السواد أيام الصيف يتقي به العبار

قاطع وأضعف ما هي هذه الروايات تكرار اسكافاه بإسقاط الخراج وهي مكافأة لا بواق جدائيات الغدر والغيلة: لأنها تنجدر في كل موعد خراج، ولا يرال السؤال عن سبب إسقاطه متجدد، بين العمال وأصحاب الأمر، حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام، وما كان معاوية يعاقر عن المكافأة على دس السم للأعداء بهيئ المال المعجل والمؤجل في الخفاء، فلا يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جارماً ولا أن يرفضها حارماً، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشئ الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله إلى قصاء ما يبغيه

ونحسب أنه في هذا الفصل قد ألمعنا بأفانين الدهاء التي سببت إلى رأس الدولة الأموية، ويتبين منها جميعاً أن دهاءه من قبيل الدهاء الذي يعول على قضاء المصالح وتبادل المصالح، ويتساوى فيه دهاء الطرمين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر. فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذي يسوق الأعوان سوقاً إلى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الإقناع لا برهان فيه على الحقيقة، ولكنه ضرب من «التنويم المغناطيسي» تعمل فيه المشيئتان بمشيئة وحدة.

وإنما استطاع معاوية أن يستهوي الناس إليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستنثاره بأقطارها جميعاً على أيام عثمان بن عفان، ولحتجاره بما شاء من أموالها وخبراتها وولاء أعوانها بغير رقبة عليه بعد أيام العاروق.

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملئ له طبع موطور على الأمانة لم تتعطله الحوادث قط كما تعجت مافسيه في الحجار والعراق، وكان ذلك النصب حسبه من العدة في ذلك النزاع الذي لا سواء فيه بين المصاعب والعقبات من الحائنين.

ولو أنه مورن بينه وبين زملائه في سعة الدهاء، لكان آخر الأربعة صعباً أو لم يكن عسى اليقين أو الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص، فإن الهارق بينهما كالهارق بين العيقرية والدرية^(٢٠) أو بين العقل المشيع بالقوة والحيوية والعقل الذي قصاره من الرأي أن يحذر ويتريص ويتحجب حيثما كان

(٢٠) الدرية المراماة والعمدة على الشئ.

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودهاء، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع دائم على أحسن الأحوال، وكان هو بجهل موارد الرححان بين الدهاءين، ويحسب أن انتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الداهية من دهائه، كأنما الدهاء سلاح يعمل عمل الدرع، ولا يعمل عمل السيف أو السهم في وقت من الأوقات.

* * *

سأل معاوية عمرو بن العاص ما بلغ من عقلك؟ قال ما دخلت في شيء قط إلا خرجت منه قال معاوية لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه^١ ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ثم يبحث عن محارج النجاة منها، ولكنه يقتحم الخطر ويقول غير مرة «عليكم بكل مزلة^٢ مهلكة».. لأنه كان على ثقة بدهائه كلما ثاب إليه، وعلى وقاء لطبيعة الإقدام والافتحام التي تقتري بالعبقرية ودوافع القوة والحيوية، وليس من عزم لأمر دهاء لا يندفع بصاحبه في المصمات، ولا يرجى من نفعه قط إلا أنه لجام ولا فكران - بعد - لدهاء معارية على هذا التقدير، وإنما قصاراه من هذا التقدير أنه لم يصيغ الفرصة التي سحت له، وأنه صبر في انتظارها وأطال الصبر غير متعل لها قبل أوابها وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه..

(٢٩) مزلة أرض لا تثبت عليها قدم.

الحلم

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين. وقد أفرد ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفاً في حلمه، وقال قبيصة ابن جابر «صحبت معاوية فما رأيت رجلاً أثقل حطماً ولا أبطأ جهلاً ولا أبعد أبة منه» ورد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره.

ولم يعثر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه. كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والأناة، ولا غرابة في ذلك من جميع لوجوه. فما من رجل عسى نصيب من الدهاء يظن دهاءه ويفخر به وهو مستطيع أن يخفيه ويموهه بالصيحة والصرخة، ومن صنع ذلك فهو كالصائد ادى يكشف حبالته للقنينة وهي خليفة ألا تقع فيها إذا انكشفت لعينها.

ووجه آخر من وجوه الحذر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية أنه كان حريصاً على التحجب إلى الناس؛ لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا ينطوون على الحب لمن ينتزع السلطان إن لم يكن نخوة وألفة فحسداً وغيرة، أو إغراضاً عن العاصب إلى من هو أولى بالسلطان في رأى أصحاب هذا الرأى وإقبالاً على مسيحته عندهم بغير مراع.

سئر «أى أساس أحب إليك» قال أشدهم تحبباً لى إلى الناس» وغنى عن القول أن الصفح عن المسىء مع القدرة على البطش به من أقرب الوسائل إلى كسب ولائه وكسب ولاه غيره ممن يسمع بالخبر ويصمده، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون في إبداء كل خبر فيه مآثرة من مآثر العفو والأناة والبر بكل مسيء من أولئك الذين كانوا يبطأولون عليه بالمشاءة في أول عهده بالملك على الخصوص، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل.

كان يقول إني لأرهب نفسي أن يكون ديب أعظم من عقوى، وجهل أكبر من حلمى، وعورة لا أوارىها بسترى، وإساءة أكثر من إحسانى. وكان يقول في مجالسه «لو أن بيدى وبين الناس شجرة ما انقطعت»، وسأله بعضهم كيف ذلك؟ فقال «كنت إذا شذوها أرخيتها وإذا أرخوها شذرتها».

وخطب يوماً فقال «والله لا أحسن السيف على من لا سيف به، وإن لم يكر منكم إلا ما يستشفى به القائر بلسانه فقد جعلت ذلك دبر^١ أدنى وتحت قدمي»
وحد الحلم عنده ألا يكون في اعدون والتطاول مساس بملكه وسلطانه. أعط
له رجل مأكلاً، فقل له أتطمع عن هذا؟ فقال: إني لا أحور بين الناس وبين
ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

ووجه آخر غير هذه الوجهة كان من دواعي اللهج عند معاوية بفصيلة الحلم
قبس غيرها من الفضائل التي كان في وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو
الهمة وما إلى ذلك من المناقب التي يسلم له بها الأنصار ولا يحدها كثير من
الخصوم

كان الحلم دعاية سياسية في خصومته مع علي بن أبي طالب بما اشتهر به
من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى.

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية، وما تحسبها غابت
قط بمحمدة من محامد الرئاسة معالاتها بالحلم وقرينه «الحكمة».

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثرُوا في مدحهما إكثارهم في القول المعاد
من قبيل تحصيل الحاصل.

فأما الحلم فقد كانوا يغالون في الثناء عليه، لأنه محمودة يطلبونها في
الرؤساء ولا تحري محرى الصفات المبدونة لسائر المتصفين، ولما اختلف على
ومعاوية لم يكن أحديهما على على شجاعته وتقواه وسابقته إلى الإسلام وقرابته
من رسول الله، فإذا شاء معارضة أن يواريه بصفة من صفات الرئاسة، فتلك هي
الحلم دون غيره، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأي والحلم والحزم، وأن علياً
صاحب الشجاعة والصلاح، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة
الدعاة من حزب معاوية، وكاد أن يقبلها الباقون لعلي من حربه لاشتدده في
الحق الذي لا مثنوية فيه، وأمسك معاوية على كل لجاجة في أمر التقوى والصلاح
ليقول كلما نافس عبياً وابنه الحسن إن لم أكر خيركم فأنا خيركم لديكم

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبيب إلى الناس، وسيلة من وسائل الدعاية
السياسية يعرر بها حجته ولا يستصيح أن يفخر بصفة غيرها في مقام امفاصلة بينه وبين
الرجل الذي سلم له المصنف و لمكابره بفصيلة الشجاعة وفصيلة التقوى.

١) دبر الدبر من كل شيء عقبه ومؤخره

لا حرم كان فى أخبار حلمه، فراط ومحاورة للمأثوف من أمثاله، وكان من أهله من يثور لإفراطه هذا، ويحس الهوان فى عرته لما يحتمله صاحب الأمر كله فى دولتهم من الجرأة عليه وعليهم، وكان يريد - ابنه وولى عهده - أشد هؤلاء الثائرين سخطاً على أبيه، يقول له كلما راحه «أخاف أن يعد ذلك منك ضعفاً وحبناً». فيقول له «أى بنى! إنه لا يكون مع الحلم بدامة ولا مدمة، فامض لشأنك ودعنى ورأى»

وقد يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم «المعروط» إلى سورة^(٢) الشباب وحب الاستطالة^(٣) بالعزة والسودد على عادة أترابه وأنداده، ولكن الرأى بين آل بيته «المحكين» أنه كان يبلغ فى احتمال «الأدى والصبر على المساءة»، وكان راح فى حنكة عبد الملك بن مروان يسمى ذلك منه «هاناً» كما قال فى بعض خطبه «ما أنا بالخليفة المستضعف - يعنى عثمان - وما أنا بالخليفة المدهن - يعنى معاوية - وما أنا بالخليفة المأمون - يعنى يزيد»

ومما يدل على أن الفخر بالحلم دخل فى دعاية الخصومة بين معاوية وعلى خاصة، أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولا يفخر به أحد من الأمويين غير الفرع المؤسس لدولتهم فى إبان النزاع الأول على الخلافة فالمعلوم أن بنى أمية فرعان فرع حرب، وفرع أبى العاص، وإلى حرب ينتمى أبو سفيان وابنه معاوية، وإلى أبى العاص ينتمى مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته، وهى مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سليمان بن عبد الملك

فالمفارقة بالحلم إما كانت تجرى على سائر معاوية، ولم تجر بعده على سائر أمويين حين تأسست الدولة الأموية واستغنى القائمون بها عن مقابلة فضائل على بن أبى طالب بفصائل «سياسية» يرجحون بها أنفسهم فى ميران الخصومة كان معاوية يقول إذا لم يكن الأموى حليماً فقد هارق أصله وخالف آبائه.. وكان يقول: «يا بنى أمية! فارقوا قريشاً بالحلم هو الله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتماً وأوسع حلماً فأرحم وهو لى صديق، إن استحدثته أنجذنى وأثور به فيثور معى، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده إلا كرمًا»

(٢) سورة بالنجم، الصده والشده (٣) الاستطالة استطال عنى القوم رفع نفسه عليهم وقهرهم

وكان المتقربون إليه يذكرونه حلم أبى سفيان إذا أنكروا منه سورة النقرة وانغصب وقيل له بعد مقتل حجر بن عدي: أين غاب عنكم حلم أبى سفيان؟ فكان يقول: حيث غاب على حلماء قومي وحملنى ابن سمية فاحتملت. وقال لسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال لم يكن معي رشيد.

ولاشك أن معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعة قديمة هي بيته بين بيوت بنى أمية، لأن هذا الفخر لا يخلق من يوم وليلة في البلاد العربية التي تذكر وراثاتها وتعيد لها ولا تحاطب بها من يحفلها، ومن المشهور أن حرب بن أمية أصلح بين فريش وهوازن في حرب الفجار الثانية بعد اقتتال يسير، وأن ابنه سفيان كان يأنى ولا يهجم في خصومات الجاهلية وخصومات الإسلام، ولا يمنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة إليه في المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة، وقد سكت عنه الأمويون على عهد الفرع الآخر منهم وهو فرع المروانية - لأنهم لم يحتاجوا إليه في منازعاتهم، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع إلى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة إليه.

والوقائع - بعد - أصدق من إطراء المادح وعمز القادح، فإنها قد تمتزج بالكذب عمداً أو على غير عمد، ولكنها هي كثير من الأحوال تنقص كلام قائلها إذا عرست على التمهيص^(٤) والتحليل فيسوقها للمدح وهي مطوية على دخلة تطل مديحه المقصود، أو يسوقها للقدح وما تنطوي عليه أية من آيات اللذء والمديح.

والوقائع التي رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة، تتفق فيها الكلمات أحياناً ويختلف فيها القائلون والرواة، أو يتفق فيها هؤلاء جميعاً بغير اختلاف كبير، وهكذا معظم الوقائع التي رويت عن أعمال ذلك الجيل وما بعده، فلاند فيها من حساب للمبالغة وحساب لستر جيح والتصحيح بالمقاربة والمضاهة^(٥).

وليست كل هذه الوقائع - مع ذلك - بصالحة للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف.

فعنها ما تعرض فيه للإساءة مستدعياً لها مستعداً لها في مجال التبسط

(٤) التمهيص معص فلاش الشيء، خلصه من كل عيب (٥) المضاهة المواربة والمقاربة

والمزاح، والعالم الإسلامي لم يتعود بعد طعيان الملك، ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بعثله في كل مقام. قدم جارية بن قدامة السعدي عليه فقال: من أنت؟ قال: جارية بن قدامة قال: وما عسيت أن تكون؟ هل أنت إلا تحله؟ قال: لا قل فإنما شبهتني بها حاميه اللسعة حلوه البصاق ووالله ما معاوية إلا كلبة تعاوي^(٦) الكلاب وما أمية إلا تصغير أمة.

ورويت هذه القصة على رواية أخرى، ف قيل إن معاوية بإدبه قاتلاً «أنت الساعي مع علي بن أبي طالب والموقد النار في شمس - جمع شعلة - نجوس قري عربية لتسبك دماءهم؟ فقال جارية يا معاوية، دع عنك علياً عما أبغضنا علياً منذ أذهبناه ولا غششناه منذ صحبناه فقال له معاوية ويحك يا جارية ما كان أموك على أهلك إذ سموك جارية، لا أم بك. قال جارية أم ما ولدني إن قوائم السيوف التي لقياك بها يصفين في أيديها. إنك لم تملكت قسرة ولم تفتنحبا عبوة، ولكن أعطيتنا عهداً ومواثيق فإن وفيت لنا وعينا وإن ترغب إلى غير ذلك فقد تركنا وراعتنا رجالاً مداناً^(٧) وأذرعاً شداداً، وأسنة حداداً فإن بسطت إليها فترا من غدر دلفنا إليك بجاع من ختر قال معاوية لا أكثر الله في الناس من أمثالك.

وما صن معاوية كان مخاطباً بذلك الخطاب رجلاً يوصف في عصرنا هذا بأنه من «أكل النار» ثم لا يتقرب منه جواب كجوابه، ولعله كان يرصيه أن يسمع منه تسليماً واستكانة فيطمئن إلى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه - ولا ريب - لم يعب عن دمه أن جارية أهل لأن يسمعه ما سمع، وأن يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التي لا يأبها كثير من الناس، وهي طرافة الحواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله في هذا المقام.

ومن الجواب المستدعي - أو المستنار - قول خريم بن فاتك وقد دخل على معاوية مشمراً منزره، فقال له «لركانت هبار لساقان لامرأة؟» وكان معاوية عظيم الألتين يهجي فيقال فيه إنه الحاحظ العين العظيم الحاوية^(٨)، فما عثم^(٩) خريم أن أحابه قاتلاً «هي مثل عجيزتك^(١٠) يا أمير المؤمنين»!

(٦) تعاوي: كلاب صيحها، وعوى مثلها (٧) مدان: جمع مديد أي هوي.

(٨) الحاوية الأسماء (٩) عثم: يقال: ما عثم أن فعل كذا أي ما ثبت وما بطل.

(١٠) العجيرة العجز هو ما بين الوركين، والنوخرة.

وأشبه بهذا لمقام حوارهم مع الزرقاء بنت عدى خطيبة صفين حين ذكرت في مجلسه بعد سنوات فأرسل إليها يستدعيها فقالت للرسول: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي قباي لا أذهب، فلما شدوا عليها في الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبي سفيان، والوليد، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص فهش لها ورحب بها، ثم سألها: أتدريين عيم بعثت إليك؟

قالت: وأنى لي بعلم ما لم أعلم. لا يعلم الغيب إلا الله..
مسكت هنيئة ثم قال: ألسنت أنت الراكبة الجمل الأحمر في صفين تحضين الناس بين الصفين على القتال؟

قالت: نعم!

قال فما حملك على ذلك؟

قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب، ولن يعود ما ذهب، والذهب هو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر

قال: صدقت. أتحفظين كلامك يومئذ؟

قالت لا والله، أسميته.

قل لكني أحفظه، وله أبوك حين تقولين «أيها الناس» ارجعوا وارجعوا إنكم أصبحتم في فتنة، عشيتكم جلابيب الطلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيالها فتنة عمياء، صماء، بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لفائدها، إن المصباح لا يصيء في الشمس، والكواكب لا تنير مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد»

واسترسل في قول الرواة يعيد عليها كلامها إلى أن قال

- والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه

قالت أحسن الله بشارتك وأدام سلامتكَ، فمثلك بشر بحير وسر جليسه

قال: أو يسرك ذلك؟

قالت: نعم

قال معاوية والله لو فارقكم بعد موته أعجب إلي من حبكم في حياته، أذكرى

حاحتك..

قالت يا أمير المؤمنين آليت على نفسي لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً

ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاهما

وجاءته بكاراة الهلالية بالمدينة، وقد أسست وغشى^(١١) بصرها، فسلمت وجلس، فرد عليها اسلام وعال كيف أنت يا خالة؟
فقلت. بخير يا أمير المؤمنين قال. غيرك الدهر. قالت. كذلك هو ذو غير، ومن عاش كبر، ومن مات قهر.

قال عمرو بن العاص هي والله القائلة يا أمير المؤمنين.
يا ريد دونك فاحتضر من دارنا سيفاً حمماً في التراب دفينا
قد كنت أدخره ليوم كريهة عالىوم أهرزه الزمان مصوباً
وقال مروان، هي والله القائلة يا أمير المؤمنين
أترى ابن هند للخلافة مالكا هيات ذاك وإن أراد بعبد
منك نفسك في الخلاه ضلالة أغراك عمرو - للشق - وسعيد
وقال سعيد بن العاص. هي والله القائلة
فأله آخر مدتي هتطلأولت حتى رأيت من الزمان محائباً
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لأن أحمد عاتباً
فقلت بكاراة: نيحتى كلابك يا أمير المؤمنين. وأنا والله قائلة ما قالوا،
لا أدفع ذلك بتكديب، وما خفى عليك مسى أكثر، فامض لشأنك، فلا خير في العيش
بعد أمير المؤمنين.
فضحك معاوية وقال، ليس يمعنا ذلك من برك. انكرى حاجتك، قالت. أما
الآن فلا.

ويتم لرواة روايتهم فيقولون إنه قصى حوائجها ورددّها إلى بلدها.

ولا مخالفة للمعهود في ازدلاف^(١٢) المزدلفين لصاحب الأمر بالوقوف في
خصمه بمحضر من يكره ذلك من خاصة أهله فإن نحا المزدلف بزلفاه فقد
رضى وأرضى، وإن أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزحيتها^(١٣) المسقى في
محلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذي يعنثه ولا تصيقه
دولته في مطلعها وقد ازدلف إليه الكثيرون فسلموا، وازدلف إليه غيرهم فأصيبوا
بحق لا يمتري^(١٤) فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب،

(١٢) ازدلف: دنا وتقرب.

(١١) غشى بصرها: أظلم.

(١٤) يمتري: يشك.

(١٣) يزحيتها: رجى الشيء ورجاه. دفعه يرفق.

ولا يمتري فيه مسلمان يؤمن باحق حيث كان، وأظهره رد العدوان في غير داعيه للعدوان.

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب، وأمه بنت علي أم كلثوم فقال بسر بن أرطاة من الإمام، فما أهله زيد أن قام إليه فعلاه بالعصا وشج رأسه فلم يزد معاوية علي أن قال لزيد. عمدت إلي شيخ فريش وسيد أهل الشام فضربتة؟ ثم النفث إلي بسر فقال. تشتم علياً علي رؤوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر علي ذلك؟

وكل أولئك شبيه أن يكون بسر بن أرطاة قتل طلعين باليمن لعبيد الله بن عباس ينال من علي في حضرة معاوية، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه إن صبر علي ثلث^(١٥) جده في مكان حيث كان، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر أن مصت في سبيلها، ولكنه لا يبطش بزيد أن غضب لحدده وأصاب السفينة بجريرة سفاهته، ولا تساوي تلك السفاهة أن يشتريها بالديكال الذي تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة في ملكه، وكل أولئك - كما أسلفنا - شبيه أن يكون، فلا يحسبه أحد في ذلك العصر من حلم معاوية، بل يحسبه من جبر زيد إن لم يصنع ما صنع بابن أرطاة

وإن الأشبه بالصق في حملة تلك الروايات ان معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هذه الاستشارة^(١٦) لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التي تخطاها بعد هوات العاشية^(١٧)، وتريحه إلى لقاء خصومه وهم في كنفه ينظرون إليه في مستقر محاحه وطفه، ولا يضيقونه بقولة يقوبونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال. وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بدوى اللس من العلويين ليضحك مما يبالغهم كما يفعل دور السلطان في كل زمن وكل أمة، فريما كانت سخريتهم بالأنصار أمتع بهم من صد الخصوم، وقد يطلقون بعضهم علي بعض، ليسخروا منهم جميعاً إن لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين.

* * *

وقد اجتمع من سجال^(١٨) بنى هاشم وخصومهم في مجلسه ما يعقد به سحر خاص في مآثورات الحور في كل مقام، ويصح وقوعه في رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه علي غير ذلك النمط الذي تماقله الرواة

(١٦) العاشية. الداهية والقيامة

(١٥) ثلث سب وشتم

(١٧) سجال. ساحل فلان صاحبه عارقه وباراه ونظيره وصنع مثل صنيعه.

أبى من دوى السلطان المحدث يعلمون هوان أقدرهم مع بنى هاشم وأل
 النبى وصفوه قريش، ويلذ بهم أن يعموا بالسلطان وأن «يجتروا» تلك المعمة
 حينما وسعهم احذرهم فى حصرة وليهم وعلى مسمع من السادة الأعلى الدين
 عليوا على ذلك السلطان، وأن ولى الأمر نفسه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير
 مأمور، وأن الموتورين إذا سمعوا ما يكرهون قردوه بمثله فما فى وسعه أن
 يواجه العالم الإسلامى كل يوم بشهيد من آل البيت . فسبيله أن يصطنع المصالحة
 لجلسائه، وأن يحذرهم مخبة اللهو بهذه «المهاة»، ولا أمان فيها من لس القوم
 وأنفتهم التى لم تخذلهم قط فى مقام المناظرة والتحدى من زمن قديم فإن
 أصيب جلساؤه فعليهم رزق عملهم، وليس لهم أن يطالبوه بالاقتصاص لهم من
 أمر قد اختاروه على خلاف رأيه. وإن سلم أولئك الجلساء بقدر شغوا صدره من
 أولئك الموتورين

وتكاد القصص مع بنى هاشم فى مجلس معاوية تجرى كلها على وتيرة
 واحدة رجل من آل البيت يدعى إلى المجلس أو يأتى إليه فى أمر من أموره فيغرى
 به حليس من الحاشية يتحرش به ويستثيره فيجاب بما هو أهله، ويتعاضب
 معاوية على الحليس فيلومه إذا بلغ الجدل والمحار^(١٨) قصص المقال، وما يرى أن
 المهاة كلها كانت مدبرة لكى تنتهى إلى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة وماذا
 عليهم إذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان؟

إلا أن حديثاً واحداً من أحاديث بى هاشم يحاف هذا النمط ولا يستقيم مع
 سائر هذه الأحاديث فلم يكن البادئون به من جلساء معاوية، ولا من آل البيت،
 ولكن البادئ به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية^(١٩)
 و لمدارة، وليس فيه نفع له فى شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره
 تستوجب ذلك الحديث

قيل إنه تحدث إلى ابن عباس فقال له إن فى نفسى منكم لحرارات^(٢٠) يابى
 هاشم وإبى لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأبى العار فإن دماءنا قبلكم وظلامتنا
 فبكم، فقال له ابن عباس. والله إن رمت ذلك يا معارية لتثيرن عليك أسداً مخدرة

(١٨) المعال الكيد والمكر والجدال.

(١٩) النقيه إمهر الموافقة وإصمار نقيصه

(٢٠) حرارات، الممرارة يهيج الحاء، وجع فى القلب من عيظ وتحوه

وأعاعى مطرقة، لا يفتأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح، يضعون
أسياقهم على عواتقهم ويضربون قدماً بدماً من باوأهم .

إلى أن قال في رواية الرواة: «فلتكرب منهن بحيث أعدت ليلة الهرب للهرب فرسك،
وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وفوك بأنفسهم
وبذلوا بونك مهجهم. ورفعوا المصاحف مستحيرين بها وعافذين بعصمتها لكنت شلواً
مطروحاً بالعراء. وما أقوى هذا لأصرعك عن عريمتك، ولا لأزريك عن معقود نيتك،
ولكنها الرحم تعطف عليك، والأراصر توجب صرف النصيحة إليك». فعال معاوية لله
درك يابن عباس. ما تكشفت الأيام منك إلا عن سيف صقيل ورأى أصيل. والله لو لم
يلد بنو هاشم غيرك لما بقى عددهم ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم

وإن دواعي الشك في مثل هذا الحديث لكثيرة، لولا أن التلغيق فيه أعسر من أن
يتاح لكل راوية يصع الكلام على كل لسان، ولا يبالي أين مرضعه من انقائل
والمجيب.

فإن كان معاوية قاتلاً مثل ذلك المقال لأحد من بني هاشم، وإنما يقوله
لعبدالله بن عباس دون غيره، فإنه حديث داهية يسبر^(٢١) به عور داهية يقارنه
من بيت خصومه، وإنه مع ذلك قرين تجمعه أصرة القرابة بأر على، ولا تجمعه
بهم أصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الوحمة وقد تخلى ابن عباس عن
ولاية ابن أبي طالب ووقعت بينهما الحفوة التي لم تصلحها حوادث الأيام بعد
ذلك. ولا منافسة بين علي وأبيائه في حياته ولا بعد مماته، وإنما المنافسة بينه
وبين أعمامه وبني عمومته، إنما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبي هو أبو
طالب، والآخر ابن عم للنبي هو ابن عباس

وأي فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب
للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين؟ أي فائدة كان يفيدها لو رأى من
دهاء ابن عباس أنه يمهّد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشفع لغيره
من سائر أهل البيت؟

إن عرابة هذه القصة هي التي ترححها وبصعف الشك فيها، فإنها إن وقعت
لن تقع إلا على غرابتها.

(٢١) يسبر عوراً: سير الخرج وسعوه فاسه وامتنح عوره يعرف مقداره والأمر اختيره، والخور العمق

إنها غريبة من معاوية إلا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له ظاهر وباطن يستطلع بهذه المعاحنه ولا يستطلع بغيرها، وقد يبدو منه ما تنكشف به حليته لموقف بيعة وبين سائر بني هاشم، وكل بني هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرها وباطنهم لا يختلفان إذا سمعوا مثل ذلك المذير
هذا أو تكون بعثة من بعثات الكظم تنطبق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفى باللسان ما لا يضمه الجبان.

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعاً لم تكن في ذلك العصر مما يستكثر على مناسباتها، وقد سمعها معاوية - أو سمعها جلساؤه معه - متوقعة مستثارة، ولم يتعود الناس يومئذ أبهه الملك وطاعة العبيد للسلطة، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتاً في موضع القوي، وإعصاء في موضع الأنفة، وإنما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين في حق الطاعة، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب إنساناً بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يحبيه بمثل خطابه، فهذه «هرقلية» لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا، ولم يكن في طاقة معاوية أن يروض رعاياه عليها دفعة واحدة، يبدأ تمهل فيها أونة بعد أونة ما يبس يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار

ومن الوقائع التي رويت عنه وقائع يلتبس فيها الحلم وبطء الغضب وطول الروية والامانة، ومنها ما يتلقى فيه الإساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الإجابة عنها بما يروى فيه الطر ويرتصيه

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب إليه ابن الزبير «أما بعد يا معاوية، إن لم تمنع عبيدك من دخول أرضي وإلا كان لي ولك شأن».

وقيل إن معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله ما ترى؟ فقال له يزيد لتعذر إليه جيشاً أوله عنده وآخره عندك بأتوك برأسه فقال بل عندي يابسي خير من ذلك، وكتب إلى ابن الزبير

«وقعت على كتابك يا ابن حوارى^(٢٢) رسول الله ﷺ، وسأني والله ما ساءك، والدينا هبة عندي في حنب رصاك، وقد كتبت على نفسي رقيماً^(٢٣) بالأرض والعبيد وأشهدت على ما فيه، وتنصف الأرض إلى أرضك والعبيد إلى عبيدك والسلام»

(٢٢) حوارى، أحد أنصار النبي

(٢٣) رقيماً: كتاباً، ورقم الكتاب. كتبه

فحاهه الحوب من ابن الربير يقول فيه «وقعت على كتاب أمير المؤمنين أطان
الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أجله من قريش هذا المحل والسلام»
وأطلع معاوية أبيه على الكتاب الثاني كما أطلعه على الكتاب الأول فأسعر^(٢٤)
وحه، وأبوه يقول: إذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء
ومن الإساءات ما لا خطر له، لأنه من غير ذي شأن كشأن ابن الربير، ولكه
يغضب العري، لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الله بن حسان برملة بنت
معاوية إن قال:

رملُ هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرها بالتمنى
إذ تقولين عمر ك الله هن ش سء، وإن جل، سوف يسبك عنى؟
فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الأنصار فأبى، ودله على الأخطى
فطم قصيدته التى يقول منها

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللوم تحت عمام الأنصار
وأوشكت أن تكون فتنة، إذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محققاً وحس
من رأسه وهو يقول له هن ترى يا معاوية لوأماً؟ فقال بل كرمأ وخيراً، فما
بالك؟ فأعاد عليه أبيات الأخطى وتوعده بأبيات يقول منها

معاوى إلا تعطب الحق نعرف لحي الأزد مشدوداً عليها العمام
أيشتما عبد الأراقم^(٢٥) صلة وماذا الذى يحدى عليك الأراقم
فما لى ثأر دون قطع لسانه هدونك من يرضيه عك الدراهم
وتتم القصة بما قيل عن طلب معاوية للأخطى وتهديده بإياه بقطع لسانه لولا
شفاعه يزيد الذى أعراه بالهجام.

وفى رواية من هذه الروايات الكثيرة أن التشبيب إنما كان بأخت معاوية ون
يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان
طان ليلي وبت كالمجبون ومثلت الثواء^(٢٦) فى حيرون
فقال له وما عليك يا بنى من طول ليله وحزبه؟ أبعد الله
قال يزيد وإنه ليقول:

فلذاك اغتربت بإشمام حنى ظن أهلى مرحمات الظنون

(٢٤) أسفر أسفر وجهه فلان حسناً، أشرق

(٢٥) الأراقم: جمع أرقم وهو اخبث العيات والأراقم: حنى من بنى مطلب. (٢٦) الثواء: الإقامة

فقال أبوه وما علينا من ظن أهله؟

قال يزيد، وإنه ليقول

هي زهراء مثل لؤلؤة الغر

قال معاوية صدق يا بني ، هي كذلك

قال يزيد، وإنه ليقول.

ثم خاصرتها إلى القبة الخصر

عن يساري إذا دخلت إليها

فصحك معاوية وقال. ولا كل ذات

ثم حذر ابنه قائلاً ليس يجب القتل في هذا ولكننا نكفه بالصلة.

ورعوا في بعض روايات القصتين أن معاوية أرسر في طلب الشاعر وأبلغه أن هذا أخت رملة تعتب عليه لأنه لا يسويها بختها، وأراد بذلك أن يشيب الشاعر بهذا فيعلم الناس أنه كاذب في كل ما نظم، ولأنها أقاوير الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون.

والثابت من كل هذا الحديث بيت الأخطى في هجاء أنصار، وربما ثبت مثله هجاء الأرقام قوم الأخطى من تغلب، فإذا كان قد دخل في الأمر تشبيب بأخت يزيد أو بعمة، فربما هو خطر غصب الأنصار وغصب المسلمين جميعاً أن يهجو أنصار النبي شاعر من غير المسلمين، ولو أن المسألة خلصت من هذا الحرج، لما جاز قتل الشاعر من حراء لغوه كما قال معاوية، فما كان سبك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح في صدر الإسلام وقد مضى بعد هذا الحيل أجيال على سنة لملك العصوص^(٢٧) ولم يخطر للمهدي في دولة بني العباس أن يقتل بشاراً وهو القائم في أبي جعفر المنصور

أبا جعفر ما طول عيش بسدائم

ولا سالم عما قليل بسالم

كأنك لم تسمع بقتل متوج

عظيم ولم تسمع بقتك الأعاحم

بل هر الذي أفحش في هجاء المهدي وهجاء نساء بيته، وذهب يخطب بالمهاجرة والتجريض بين بني أمية وبني العباس، وما استباح المهدي عفاة إلا بتهمة الربدقة والإباحة، وما أمر إلا بأن يصرب صرب التلف ليفال في ذلك إنه إنما أريد به الصرب هجات.

وهذا بشار وذاك عبد الرحمن بن حسان

(٢٧) العصوصي الملك المعتصم بالله.

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الإنسانية - أى فهم الإنسان - لا جدوى من التعويض على ألفاظ الصفات، ولا بد من الرجوع إلى الوقائع ومآلها من الأثر الطبيعى فى الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليفه نفسية أو ملكة عقلية.

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبدى لب منه صفة لا شك فيها وهى صول الأناة ويطء العصب، وليست هى بالصفة التى مرادف الحلم كم يفهم لأول وهلة، إذ كثيراً ما يكون بطاء الغضب شيئاً «سلبياً» يدل على متدع الغضب طبعاً أو قلة الاستعداد له فى الخلقة، ولا تكون الفضيلة أبداً «شيئاً سلبياً» قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى

فليس معنى الشجاعة مثلاً تحرد الطبع من الشعور بالخوف، لأن الإنسان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به، يندفع اندفاع الحمار ولا فؤس له فى اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره فى ضميره

وليس معنى الكرم تحرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المديحة المبدولة، لأن من يصرف فى شيء لا قيمة له عبده، كمى يتصرف فى الثراب والهواء وما إليهما من مبدول العطاء.

وليس معنى العفة تحرد الطبع من الشعور بالشهوات، لأن من لا يشتهى لا يطلب ولا يقاوم الإغراء ولا تحسب له عفة.

وليس معنى الحلم مجرد الطبع من اشعور بالغضب، لأن التحرد من هذا الشعور قد مأتى من بلادة فى الطبع وركود فى حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال

وإما الحلم أن يعصب الإنسان وأن يحكم عصبه بإرادته، إثارة لأمر يفوق الغضب فى قيم الأخلاق

فمن الحلم أن يهدف الإنسان من الاستسلام للغضب، لأنه يرتفع بكرامته من تصيبها إساءة المسيء

ومن الحلم أن يصفح الإنسان عن الإساءة، إثارة للخير وعطفاً على المسيء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع فى حق أبيه

ومن الحلم أن يقمع الإنسان عصبه؛ لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة، وإن يكن أسلمها له هي ذات شأنه وشئون ذويه. ولا بد من التفرقة هنا بين الحلم إثارة للنفع القومي، وبين الحلم إثارة للسلامة وعملاً بطبيعته «الأمانيه» وحب الذات.

فليس من الحلم أن يصرب الضعيف فلا يرد اضربة بمثلها؛ لأنه يعلم أنه سيتلقى أصعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على إيدائه، وإنما يقال عن هذا إنه حين أو رضا من المعتدى عليه بأهول الشرب ولا يكون الحلم أبداً عجزاً عن مجازاة الغضب أو امتناعاً للشعور به؛ لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع، ولكنها تقوم على إرادة تملك الاختيار بين الخطتين.

وجملة القول هي هذه الصفة أن الحلم هو الذي يملك الغضب ولا يملكه الغضب، وكلما اشتد الغضب واشتدت قدره عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه، وكلما ارتفع اسبب الذي من أجله يغلّب الحلم على غصبه كان ذلك أرفع لقدره وأرحح لوزنه في ميزان الفضيلة، فمن يحسم الغضب حرصاً على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصاً على منفعه العاجلة أو الآجلة، ومن يحسم الغضب لأنه يشم الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره.

ومن كلام حكماء العرب وبلغاتهم نستشف^(٢٨) فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة، فهي فضيلة المرید المختار المالك لزمائم الأمور، كما قال ابن خالفة مولى قيس ابن ثعلبة يمدح قوماً من آل شيبار

عليهم وقار الحلم حتى كأنما
إن استحلوا لم يعزب^(٢٩) الحلم عنهم
أو كما قال النابغة الجعدي

ولا خير في حلم إذا لم يكن له
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
بواد^(٣٠) تحمى صفوه أن يكدرا
حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

(٢٨) يستشف، استشف الشيء، نظر منه إلى ما وراءه، واستشف الكتاب تأمل ما فيه

(٢٩) يعزب، عزب الشيء، بعد وعاب

(٣٠) بوادر البادرة، ما يبرز من حدة الإنسان في العصب

ومن كلام الأحيف بن عيسى - أحد مشاهيرهم بالحلم - «رب غيظ قد حررته مخافة ما هو أشد منه»

وكان من حلمه أنه يصفح عن المسيء وإن ضربه بذلك ويقول «ما أحب أن لي ببصيص من أذل حمر النعم»^(٣١) فلما قيل له كيف وأنت أعر العرب؟ قال «إن الناس يروون الحلم دلاً»

وهو القائل «لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان»..
وسأله ما الحلم؟ فقال «قول إن لم يكن فعل، وصمت إن خسر قول»

وروى العقد الفريد أن هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان بم بلغ قبكم الأحيف ما بلغ؟ فقال «إن شئت أخبرتك بخلة، وإن شئت بخليص، وإن شئت بثلاث»

قال فما الخبة؟

قال كان أقوى الناس على نفسه.

ثم قال عن الخليص إنه كان موقى الشر ملقى الخير، وعن الثلاث إنه كان لا يجهل ولا يبغى ولا يبخر.

وأستاذ لأحيف في الحلم قيس بن عاصم المنقري كان مشهوراً بالإقدام كشهرة بالحلم والإغصاء عن الدنوب كبيرة وصغيرة، وبلغ من حلمه أنه يصفح عن ابن أخيه الذي قتل ابنه، وقد وثقه من ود أن يبطش به لساعته، فما رآه على أن قال له مؤبياً «بئس ما فعلت، نقصت عددك، وخنت عشيرتك، وأسقطت مروءتك، وأشمت عدوك، وأسأت قومك» وأنت ابدى كما مرحو لعطائم الأمور، ثم واسى زوجته أم القليل وأجرل لها الدية من ماله، وحسم بذلك شراً مستطيراً في القبيلة لا يجعله عنده أخطر من شر الثكل إلا الحلم الراجح، والقلب الكبير، والنظر البعيد

ويعبر به مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورويتها بصدق الأخبار التي نقلها صاحب العقد الفريد عن الحكم والحلماء، ومنهم الأحيف ومعاوية.
هابس عبد ربه ينقل أن الأحيف سئل من أحلم. أنت أم معاوية؟ فقال قاله

(٣١) النعم بمقتضى المال الراعى ويقع على دوات الخف والظلف وحمر النعم أجودهم

ما رأيت أجهل منكم إن معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أفدر، فكيف أفاش عليه أو أدانيه؟

فإذا سمع السامع المتعجل هذا بحري أن يتقرر لديه رجحان معاوية في الحلم بشهادة الرجل الذي يصرب به المثل في حلمه، وأي شهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة.

وما هي إلا معاودة لحظة في السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جواباً غير ذلك الجواب، لو أنه سؤال ما كان ينبغي أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له بل أنا أحلم من معاوية! وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره، وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد لست حليماً ولكني أتحالم

ولو أن الأحنف قال برأيه ذاك اعتقاداً ولم يقن به تواضعاً أو تحالماً، لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة في أسباب تفصيله معاوية على نفسه فما هي القدرة التي كانت مطلوبة من الأحنف في مقامه؟ لقد كان يكفيه أن يقدر على كلمة لا يحزن عنها أحد، وكان يكفيه أن يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان، وأما الملوك والمطلوب منهم أعمال لا يقدرُونَ عليها في كل وقت ولا مع كل أحد، إلا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخط ما تشاء بغير مبالاة، وليس قصدي الحلم أنه غير الطياش وغير الضبط الذي لا ينظر إلى عقباة

ويوزن الراوى في روايته هذه، فلا نجهن موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية، وبسر اسبق الإشاعة من قائل إلى قائل ومن مقل إلى مقل فما هي هوى الأندلسيين لبنتي أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية في أساسها، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبي مولى هشام بن عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وأقر ما يقال في نعل ابن عبد ربه لكلمة الأحنف أنها تركية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه

ويعود إلى تاريخ معاوية فيما قاله وعيما سكت عن قوله مدد شأته الأولى فلا يجد فيه أثراً واحداً لطبيعة الغضب التي يمحى بها فضيلة الحلم كما امتحنت في نفس الرجل الحريص في صمة الثكل وهو المقبح المغوار في الحاحلية والإسلام

ونخال أن التاريخ لم يحفظ له غير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليفة في طوية الرجل، فإنها في الحق نحر لا يكفى لحله مجرد القول بالحلم أو الغضب المكبوت أو بطول الأناة وإنما يحله علم النفس الحديث على النحو الوحيد الذي يعطينا منه معنى مفهوماً على وجه من الوجوه.

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدي وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة اجلة، فما كان له من خطب غير أنه واحد من أولئك الذين قال فيهم معاوية إنه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم، لأنهم لا يحملون بين بني أمية وملكهم، فإن كان لا بد من إسكاته فقد يسكته أن يحملوه إلى مكان لا يلقي فيه من يستمع إليه

قال ابن الأثير بعد أن أوّل شئ «إن ريادة خطب يوم جمعة فأهال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر بن عدي، «الصلاة» فمضى في خطبته فقال، «الصلاة» فمضى في خطبته. فلما خشي حجر بن عدي موت الصلاة ضرب بيده إلى كف من حصى، وقام إلى الصلاة، وقام الناس معه، فلما رأى زياد ذلك مرل فصلى بالناس، وكتب إلى معاوية وكثر عليه، فكتب إليه معاوية ليثبده بالحديد ويرسله إليه فلما أراد أخذه قام قومه ليعنوه، فقال حجر لا، ولكن سمعاً وطاعة فشد في الحديد وحمل إلى معاوية، فلما دخل عليه قال السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال معاوية «أمير المؤمنين نأ» والله لا أفيلك^(٢٢) ولا أستقيك^(٢٣) أخرجوه عاصريوا عنقه، فقال حجر للذين يلون أمره، دعوني حتى أصلي ركعتين، فقاموا صل، فصلى ركعتين خفف بهما، ثم قال، لولا أن تظنوا بي عبد الذي أردت لأطلتهم، وقال لمن حصر من قومه والله لا تطلقوا عني حديدًا ولا تغسلوا عني دماً فإني لأقر معاوية عداً على الحادة وصريت عنقه».

ودعش الناس لهذه المقتلة الحراف، واهتر لها العالم الإسلامي هزة عذبة أورثته مبعضة لدولة بني أمية من تلك المبعصات انتى كمنيت وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت موارعها وظل شبح الشهيد الوقور يساور معاوية إلى يوم وفاته، فعاء في رواية ابن سيرين «إن معاوية لما حصرتة انوهة، جعل يقول، يومى صك يا حجر طويل».

(٢٢) أفيلك. أقن الله عثره ربه من سقطته. (٢٣) أستقيك. استقال الرجل صاحبه طلب إليه أن يقيله

ولا يحاط بعوارص الفرع التي أُلْمِتْ بالعالم الإسلامي من جراء هذه المقتلة الباعية، ولكنها قد تتمش في عارص واحد يدل على كثير فإن الخبر الذي ذاع عن سبيير حجر وأصحابه إلى دمشق لم يكد يصر إلى السيدة عائشة بالحجاز حتى أودت عبدالرحمن بن الحارث يقتلهم فيه وهي صحبه، وهي لا تنسى أن أعون معاوية قتلوا أخها محمداً شرقتلة، ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه في حب على وشيعته، ويبنها وبين العلويين من لعمرة ما هو معلوم.

وقد فات معاوية كل صر في هذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه كعذر ابنه يريد في مقتلة الحسين فإن يزيد قد أحال الذنب على عبيد الله بن زياد، وانعكست الآية في أمر معاوية وحجر، فكار يزيد هو الذي يفض يديه من ورر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولا، وضاق مولا بانتحال المعذرة بعد حين، فكان جوابه لسائليه مما يخجل الطفل بين الصغار فضلاً عن العاهل بين الساسة وفي ذمة التاريخ. قال له عبدالرحمن بن الحارث أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ فقال حين غاب عني مثلك من حلماء قرومى. وحملني ابن سمية فاحتملت. وسألتها السيدة عائشة تقول لولا أنا لم تعير شيئاً إلا صارت بما الأمور إلي ما هو أشد منه، لعيرها مقتل حجر أما والله إن كان مسلماً حاجاً معمرًا وكان الحسن البصري الراهد المعروف يقول أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة، لكاتب مويقة^(٢٤)، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر «فيا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من حجر، يا ويلاً له من أصحاب حجر».

وفي رثاء حجر تقول هند بنت زيد الأنصارية:

تجبرت الجبابر بعد حجر وطب لها الخوربوق^(٢٥) والسدير

فإن يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هسلك يصير

ومعذرة معاوية هذه خليقة أن تدعوا إلى تصديق الوصية التي أوصاه بها أبوه حين سافر إلى الشام، فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه في كل كبيرة وصغيرة قبل أن يحدث بيده وبين أحد أمراً في خصومة أو قطيعة، وقد يستكثر عليه أن يصفحه صامع فلا يقتصر لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه، فإذا كان الرخص يرتضى من معاذيره أن يقوده ابن سمية فينقاد، لأنه لم يحد حوله رجلاً رشيداً، فلبس بالكثير أن يؤمر بمراجعة أبيه في شتم شاتم وصرب ضارب، وهو في مقتل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة

(٢٤) مويقة مهكة (٢٥) الخوربوق مفتحتين اسم قصر بالعراق بناه المعمار الأكبر

ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان في حكم القاصر في شبابه وكهولته، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكن يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تعصب من الأمور بمقاديرها

حدث صاحب العقد الفريد في الجزء الأول عن أبي حاتم عن العتيبي قال: «قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب فأقعدهما بين يديه وحسن يسألتهما عن أعمالهما إلى أن اعرض عمرو في حديث معاوية فقال له معاوية أعملى تعيب والي تقصد؟^{١٩} فلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك قال عمرو فعلت أنه بعملى أبصر منى بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية فقال معاوية إن أبي أمرنى ألا أقضى أمراً دونه، فأرسل عمر إلى أبي سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة، وقال قال رسول الله ﷺ: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية، فقال لهذا بعثت إلى أخوه وابن عمه، وقد أتى غير كبير وقد وهبت ذلك له».

وصاحب العقد - على هواه الأموى - يسوق هذه القصة في سياق الثناء، وليس يفهم من ذلك أن أباه كان يعرف وكان يعرف أنه لا يحتكم إلى طبيعة تعصب من الأمور بمقاديرها، وأنه إذا غصب يتغاصب بالرأى والاختيار فيحطنه التقدير.

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة في لطبائع التي تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع، ولكنها إذ تركت بلا صدمة ترددها لم تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع

تلك الظاهرة من مورثات طبيعة المطاردة في الإنسان وفي الحيوان أو السبع من قبله فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تفرم على حركات متتابعة، ولا تقوم على حركة واحدة فإذا لمع الحيوان من خصمه أنه يجف منه أخذ في الهجوم، وإذا عدا خصمه أمامه أخذ في العدو وراءه، وإذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تهادى في صرعه وافتراسه، ولعبه لو وقف أمامه رابط الحاش من مبدأ الأمر لم تتسببه فيه حركة الهجوم، فحركة المطاردة، فحركة اللحاق والافتراس. وعرف صاده الأسود - وهي أخطر السباع - أنها تتردد إذا واجهها الإنسان ثابت النظر، راسخ القدمين

وقد دخل حجر على معاوية، ومعاوية ينتظر منه صدمه يتبعها حذر فانتباه لراجب الحلم والأناة، فلما دخل حجر محيياً له بالإمارة ودل الحاجر الأول، رالت معه الحواجز الأخرياء، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف وتظن أن هذه الخليفة قد أوشكت أن تبرز في طوية معاوية من وعيه الباطن إلى وعيه الظاهر، ومن ذلك قوله «إذا شد الناس شعرة أرخينها، وإذا أرخوها شددتها» أو قوله «إذا طرتم وقعنا، وإذا وقعتم طربنا». أو قوله لزياد: «كن أنت للشدة ولأكن أنا لللين»

فهر يتلقى وحى طبيعته من الصدمة التي تلقاه، فإن لم تكن صدمة فهناك الحيرة التي لا تخرجه منها طبيعة قلود بالغضب على قدرة فلا تقف حيث ينبغي لها الوقوف، ولو كان لغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يعضبون، وانتظروا غضبه حيث يحلمون، بكثير من أمثال هذه الخليفة تلقاه ببس كل يوم فيقول القائل عن الرجل من أصحابها لو أنك شددت عليه لأرضاك وهدمت أثر الشدة عليه

ويستدعيننا ختام هذا الفصل تفرقة أخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع العضب، وهي التفرقة بين الطموح إلى الزعامة والصولة، والطموح إلى الشرف الاجتماعي والوحاهة السياسية.

فالطموح إلى الزعامة والصولة مزاج حيوى يدخل في تركيب البنية، ويدفع صاحبه كما تدفعه وظائف الحسد، فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع والطموح إلى الشرف الاجتماعي تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الحطام وبسطة العيش ووحاهة الأسرة والبيت، ويغلب عليه أن يكون تراثاً متخلفاً من الآباء للأبناء يغض من الأبناء أن يتخلوا عنه ويروا غيرهم في مكانه.

ولا يلزم من الطموح إلى الشرف الاجتماعي أن يكون صاحبه مطبوعاً على الصولة والعلو وطلب اطاعة والخصوع، وقد يلجأ صاحبه إلى المساورة واللين والخصوع لهذا والمصاحبة لذلك، ليحتفظ بالتراث لدى صار إليه أو يرجو أن يصير إليه

وبحن في قريبا تشهد لمثال على كل من النموذجين في كل قرية وكل إقليم هيبدا يسميت «بيت العمدة» في استيقاد وجاهته ويلين من أحل ذلك بلحاكم

وصاحب الأمر وأعوانه على المكافحة الموروثة، يهصر رجل آخر مطبوع على الأنفة والصولة فيستطيل على تلك المكافحة، ويبارع في تلك النوحاة، ولا يستريح إلا إذا أمر وتحدى وملك رمام العره بالمقال والفعال

ويدو أمية عامة، ومعارية خاصة من أصحاب «المظهر الاجتماعي» وليس فيهم غير القليل انادر من أصحاب الطموح إلى الرعامة والصولة كما تكرر في بنية المراج وتركيب الخلق والجسد، وقد صبر معاوية على ألوان من الخصرع في طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس، لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثي ولا يطلبها بزرعة غلابة في الطبيعة والتكوين.

واحتاج أن يقول مرة كما جاء في الطبري مسنداً إلى سعيد بن سويد «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم».

وهي قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والرعامة؛ لأنهم لا يحتاجون إليها، ولكنه قالها لأنها حثمت على صدره لصول ما صبر على مجابهة هذا ومصابعة ذلك، وبذكير المذكرين إياه أنه لم يملكهم عنوة ولا فتحاً، بل ملكهم المشاركة والاتفاق فنفس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره أنه شعر بالحاجة إلى تنعيس كذلك لتنميس.

نقد كان في الرجل مشابهة للحمل انصبور، ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور^(٣٦) كان يصفح لأنه لا يعصب، وكان يحمل على كاهله وفي طوإيا نفسه ما ينوء^(٣٧) عيره بحمله، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة^(٣٨) إلى الزعامة والصولة

كان حلم امتناع غصب، وكانت همته تقليد وراثية وحلية وجاهة. وقد قال مرة أو مرات «إن السلطان يغصب غضب الصبي ويأخذ أخذ الأسد».. ولكنه حين غصب عصبته الأندة في مقتن ححر وصحبه لم يغصب غضب الصبي وحسب، بل التمس العذر، محفلاً من عصبته، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبي بين يدي الفقيه

(٣٦) الأسد الهصور الأسد الذي يكسر عظم عريته

(٣٧) ينوء، ماء الرجل بحمله نهض متفلاً به. يجهد ومشقة وتقول، ماء به الحمل أي أنفه

(٣٨) السوارة النوثابة

خليفة أموية

تميزت بنى أمية فى العاهلية وصدر الإسلام خلانق عامة يوشك أن تسمى لعمومها بينهم . . . خلانق أموية، وهى تقابل ما تسميه فى عصرنا بالخلانق الديوية أو النفعية، ويراد بها أن المرء يؤثر بنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم فى مواطن الإيفار.

وهذه الخلانق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلانق التى يسبها إليه المادحون والقادحون، لأن المادحين والقادحين قد يصدران عن غرض، وقد يكون الصدق، ولكنهم يخطئون فى أمر الرجل الواحد، أما الأخلاق التى تعم قبيلاً بأسره هى أحيال متديعة فهى أصعب تليقاً على الملقين، وأصعب خطأ على المخطئين، فإن الإجماع على الخطأ نادر فى أخبار الناس كالإجماع على الصواب.

وهذه الخلانق الأموية ديوية نفعية كما قدمنا، تميل بالمتخفين بها إلى مناعم الحياة وتحبب إليهم العيش الرعد والمنزل الوثير^(١)، وتعريهم بالنعيم واللدات يقدعونها على أنفسهم وعلى الأقرين، وهى عندهم قسطاس الير بمن يحبون كما يحبون.

وقد عرف خيارهم، ديناً وصلاً، بهذه الخلانق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح.

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية واستطاع أن يسكت عما طبعنا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن لأمويين.

كان عثمان رضى الله عنه يقول عن نفسه كما جاء فى كتاب لربص البصرة: «كنت رجلاً مستهتراً^(٢) بالنساء» وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزوج وحب عثمان لاتخاذ المباني والعمائر مشهور، وحببه لاختصاص ذوى قرياه وإغداق النعمة عليهم مشهور كذلك، وكله مما أحصاه عليه الثانرون ووجدوا فيه متسعاً للتريد والادعاء.

(١) الوثير الوطنى القين من الفريش.

(٢) مستهتراً: استهتر الرجل انبع هواه فلا يبالى بف يفتل وبغلاة أوبع بها فلا يبالى بم قين فيه لاحتها.

وعاش بعد الإسلام محباً للطعام الدسم والصحاف المستقاة، فحدث عمرو بن أمية الصمري عنه قال «إني كنت أتعشى مع عثمان خزيمة من طيخ من أحمود ما ريت، فيها بطون العجم، وأدمها اللبن والسمن، فقال عثمان كيف ترى هذا الطعام؟ فقلت: هذا أطيب ما أكلت قط فقال: يرحم الله ابن الخطاب، أكلت معه هذه الخزيمة قط؟ قلت نعم، فكادت اللقمة تفرث من يدي حين أهوى بها إلى فمي، وليس فيها لحم، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها فقال عثمان: صدقت! إن عمر رضى الله عنه أتعب والله من اتبع أثره، وبه كان يطلب بثبته - أى منعه - عن هذه الأمور ظلف - أى غلطة - فى المعيشة، ثم قال أما والله ما أكله من مال المسلمين ولكنى أكله من مالى وأنت تعلم أنى كنت أكثر قريش مالاً وأحدهم فى التجارة، وبم أرى أكل الطعام ما لا منة، وقد بلغت سناً، فأحب الطعام إلى ألبه». وقد كان عثمان أسرع قومه إلى الإسلام لأسباب بينها فى كتابنا «ذو النورين» وإنما حسب له الإسراع إلى الإسلام حيث حسب الإبطاء وانتقاعه عنه لأكثرين من بنى أمية، على دينهم فى كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الأريحية والإيثار، ولا موضع من للإطالة فى نفس أخبار المسافرات والمفاخرات التى تلم بهذا المعنى، ولكن نجعلها جميعاً فى موقف القرم من حلف الفصول وهو مشروح بتفصيلاته التى لا يشك فيها من يشكون فى تلك المناقرات والمفاخرات، فقد ظلم رجل فى حوار الحزم وباع بضاعة لواه بحقه من اشتراها فاستغث بدوى المروءة وقام على شرف^(٢) من الأرض يعلن شكواه، فاجتمع بدو هاشم، وبنو أسد، وبنو رهرة، وبنو تيم على إصباغه وإنصاف كل مظلوم مثله، فلا يظلم بمكة عريب، ولا قريب، ولا حر، ولا عبد، إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من رمزم يجعلوه فى جفة^(٣) وبعثوا به إلى البيت فعملت به أركانه وشربوه، ولم يدخل فى هذا الحلف أحد من أمية وبنى عبد شمس، بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيخشى أن يحسب خارحاً على قومه، وقال أحدهم - عتبة بن ربيعة - لو أن رجلاً وحده خرج على قومه فخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول

وهذه الخلائق الأموية وصيحت فى الحاهلية وصدر الإسلام وصوحاً لا لبس

(٤) جفة العصف

(٢) شرف المكان العالى

فيه قبل أن تلتبس الأنساب ويكثر الزواج من غير العشيرة، والبناء باجوارى من الروم والفرس والترك والبربر، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية من اندم والمشاة والقدوة والحوار

فعمرو بن عبدالعزيز - أشبه الملوك في دولة بني أمية بالخلفاء الراشدين - كان كما جاء في أسانيد ابن الجوزي: «رأيته في المدينة وهو أحسن الناس لبساً ومن أطيب الناس ريحاً، ومن أخيل^(٥) الناس في مشيته، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان».

وانفق الرواة، كابن عبد الحكم والأصفهاني وابن الحوزي في أطراف من أسانيدهم، أنه كان يتطيب في شبابه فيستظر الناس ثيابه عند الغسل ليعمل بهم في موضعها، وأنه كان يرجو شعره ويتبخر في مشيته حتى عرفت له مشية عمرية يحكيها الفتيان والفتيات، وكان يتحتم بالحواهر ويلبس الإزار بمائة دينار، ولا يرى مرتين في كساء واحد، وربما تأخر في صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل^(٦) شعره وسأله مؤدبه صالح بن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لإقامة الصلاة، فاعتذر له بإبطاء مرحلته - أي الحارية التي تعنى بترجيل شعره - فغضب المؤدب الصارم ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره.

وما برح الخليفة الصالح في نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلم عنها بعد جهد، وآب من ترف المسرفين إلى سك المترمتين، وقيل: إنه ترف من بني أمية ونسك من العاروق^(٧) لأنه ينتمي من ناحية أمه إليه.

وعلى هذا العهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهر عن نفسه فثوب إليها في طريقه، فجعل له قرباً يلزمه ويصفقه بيده كلما هم أن يثوب إليها

ولا ينسى أن بني أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية، ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربي ولا تشد عن عرقه لتقليد الذي ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال، ومن تقاليد هذا

(٥) أهيل. أكثرهم عجباً وكبراً. (٦) ترجيل. رجل الشعر سرحه

العرف أن تروض بيوت الرناسة أهباءها على بطام كالبطام العسكري، في صياهم وبعد بلوعهم مبلغ الشباب الذي يندب للقتال أو لتصرف الأمور، وسواء اختاروا ابداية لتدريب الأهباء على هذه الرياضة أرفعوها بها إلى المربين في المدن والدور فلا يشأ الناشئ منهم إلا على رياضة من هاتين الرياضتين، وكذلك فعل عبدالعزیز بن مروان في تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذي يثقفه ويأخذه بفرائض دينه وديناه، ولما بلغه من هذا المؤدب صالح بن كيسان - أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لا شغاله بمرجيس شعره أرس إليه من قبله رسولا خصصا، مأمرا ألا يكلمه حتى يقصر شعره ويبلغه غضب أبيه، ولا يحسب أن أحدا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة في تنشئة بنيه، ولكنها رياضة تنتهي إلى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها إلا الأثر الضعيف وكان عبدالعزیز يعاقب عمر ذلك العقاب وهو يزرع في الترف منزعا لا يستطيع ابنه - وإن أسرف - أن يذهب إلى مدى أبعد من مدها، فافتنى الدور في مصر وجمالها بالأثاث الفاخر، وجص يهديها إلى أبنائه ودويه واشترى أرض حنوان بعشرة آلاف دينار ليقم عليها قصره المنيف الذي موه جدرانه بالذهب وأنفق على عراشه وأثاثه عشرات الألوف، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأبها أيام أعياد كما جاء في معجم البلدان

كل يوم كأنه عيد أصحى عند عبدالعزیز أو يوم فطر
وله ألف حفنة مترعات كل يوم بمدها ألف قدر

وشهد هذا البذخ كله عمر وثقل بين أعطافه، فلولا عرق من الفاروق أدركه، لم تحول من هذا البذخ إلى النسك الذي صار به أزهى الخلفاء الراشدين وليس عبدالعزیز على هذا - بالمثل الذي يقال عنه إنه «بمودج» للخليفة الأموية في الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشارة^(٧) وبالقسامة^(٨) والنوسامة، بل كانت هذه الخليفة على أتمها في سليمان بن عبدالملك أكلفهم بعملة العيش حيث كانت هي صعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خبلاء كان نهما لا بشعب ولا يرجع الحوان من بين يديه وعليه بقية، وكان يلبس

(٧) الشارة الهيئة واللباس الحسن.

(٨) القسامة الجمال والنوسامة.

الوشى على أفحر حلية وزينة ويحضر لطهارة بين يديه بالسفايفد عليها الدجاج والطيور فلا يتمهل بها حتى تصبح، بل يلف يده فى كفه ويتناولها من البار ويأتى عليها قبل أن تنقل إلى الصحاف، وربما صحبه عمر فى السفر وهو صائم فلا يجد على العائدة فضل طعام إذا حان موعد الإفطار، وقد مات بالتخم مع إصابته بالحمى وهو فى الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد، فجعل ينظر إليهم ويبش.

بنى صبيبة صعبار أفصح من كان له كبار وأمر وريره رجاء بن حياه أن يعرضهم عليه فى الخودات والدروع لعله يخذل نفسه بمنظر صبي منهم يصلح لولاية الملك، فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه فى تلك الأزياء وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبدالحريز قال ابن الجوزى فى سيرة عمر بإسناده إن سليمان بن عبدالمك كان ربما نظر فى المرأة فيقول: أنا الملك الشاب. وكان جالساً فنظر فى المرأة إلى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال: أنا الملك الشاب، وكانت على رأسه وصيفة فقالت

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقضاء للإنسان
ويروى هذا البيت فى أسانيد أخرى ومع البيت التالى
ليس فيما بدا لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فسان

ودخل عليه المعصل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام امرأة ثم يحلعه، ويأتى بغيرها حتى ارتضى حلة منها والتفت إلى المعص سائلاً يابن المهلب: أعجبتك؟ قال المفضل: نعم محسراً^(٩) عن ذراعيه وهو يقول: أنا الملك الفتى.

هنا هو الأموى من الأمويين، وغيره منهم يشبهه فى كل خصلة من هذه الخصال عسى درجات، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم إلى رومة^(١٠) الميراث.

كان فى معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تناول الزمن بعد قدوة النبوة والحلافة الأولى خلافة الراشدين

(٩) حسر كثر (١٠) أرومة أصل الشجرة، ويستعار للحسب

(٩) حسر كثر

جاء في الطبري أنه كان يأكل في اليوم سبع مرات بلحم ويقول «والله ما أشبع وإنما أعيا».

ولم يروها الطبري وهو يشهر بها، بل رواها وقال بعدها «وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك».

وسبق الصبري هذا الخبر بتعليل لهذه النعمة من دعوة رسول الله عليه هي صباه.

ومن أخبار الإمام أحمد المسندة إلى ابن عباس أنه قال: «كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله قد جاء فقلت: ما جاء إلا إليّ واختبأت على باب فحائني فخطابي خصة أو خطاتين ثم قال اذهب قارع لي معاوية، وكسر يكتب الرخص فذهب دعوته له، فقبل إنه يأكل فأتيت رسول الله فقلت: إنه يأكل فقال اذهب فادعه فأتيته الثانية، فقبل: إنه يأكل، فأخبرته فقال في الثالثة لا أشبع الله بطنه، فما شبع بعدها».

ولم يزل بعد الإمارة يفرط في مأكله من اللحوم والطلوى والفاكهة حتى ترهل^(١١) وعجز عن القيام طويلاً فكان يحطب على المبير وهو جالس، وكان أوى من جلس في خطبة مبرية

وشغف بالأكسية كما شغف بالأطعمة، فلمس الحرير وتختم بالذهب والحوهر وولع بالثياب المزخرفة والموشاة، وتزين بالزينة التي كرهها الإسلام لعامة الرجال فضلاً عن الخفاء والأمراء، وكان لا يملك أن يترك الزينة بالكساء في صدر الدعوة والخلافة وفي الرمن الذي كان يتحرج فيه من إغصاب ولي الأمر، وهو عمر بن الخطاب

قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد كما رواه الطبري: «قدم علينا معاوية وهو أبيض بض^(١٢) وباصر^(١٣) بض الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه فدهب منه ثم يصع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عنه مثل الشراك فيقول: يغ بخ نحن إذن خير الناس أن جمع لنا خير الدنيا والاخرة». فقال معاوية: «يا أمير المؤمنين! ساعدك، أنا بأرض الحمامات

(١١) ترهل: استرهل لحمه ومبر في انتعاج.

(١٢) وباصر: لامع، براق.

(١٣) بض: الرقيق الجلد الممتلئ.

والريف ولشهورات» فقال عمر «سأحدثك أنا ما بك، لا إبطاءك نفسك بالطفء الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنتك^(١٤) وذوو الحاجات وراء الباب؟ فقال معاوية يا أمير المؤمنين، علمني أمئتش، فإن راوى الخبر فلما حثنا ذا طوى أخرج معاوية حله فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعد أحدكم فيخرج حاحاً مقللاً حتى إذا جاء أعظم بهتان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فليسهما؟ فقل معاوية إنما لبستهما لأدخر بهما على عشيرتي وقومي قال عمر والله لقد بلغني أذاك هذا وهى الشام».

وراد راوى الخبر فقال «والله يعلم أى لقد عرف الحياء فيه، ثم مزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما».

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال: «دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء، فنظر إليها الصعابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة^(١٥) فجعل يصريه بها، وجعل معاوية يقول «الله الله فى يا أمير المؤمنين مرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم لم ضربته يا أمير المؤمنين، وما فى قومك مثله؟ فقال والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغنى إلا خير، ولو بلغنى غير ذلك لكان منى إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيته - وأشار بيده - فأحببت أن أضع منه ما شئخ».

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهوه سليمان، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب وقد أصابته لوعة فى آخر عمره - وهى كأثر الضربة فى الجلد - فكان يستقر وجهه ويقول «رحم الله عبداً دعا لى بالعافية فقد رميت فى أحسنى ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى».

وهواه فى يزيد دون من ألوان هذه الخلعة الأموية، فكل الإباء يحبون الأبناء ولكن القوم لا يحسبون الأب باراً بابنه إلا إذا «نعمه» أو شغل بتنعيمه فيما يعظر فيه الآباء من رغد بمانهم وفيما يتركونه لهم ويتعاضون عنه كأنهم يجهلونه وقد أرسل معاوية ابنه يزيد إلى بادية بنى كلب - أحواله - ليتربى بينهم على القروسية والبلاغة العربية، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قياماً بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو أكرم ليريد من صروب التربية والرياسة على كبح الأهواء ولا سيما الهوى الذى يعظر إلى خرمات الناس وأعراض الرعية، فقد علق

(١٥) الدرة بكسر الدال المشددة سوط يصرب به

(١٤) متنيك المنبس جائب الظهر

يزيد بـزوجة عبدالله بن سلام زينب بنت إسحاق، ومرض بحبها مرضاً أديفه، فاحتال أسوه حتى عرف سر مرضه من خصييار القصر، فأرسل في طلب أبي هريرة وأبي الدرداء فقال لهما: إن لي ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلاً غير ابن سلام لديته وفصله وشره، فاستدع ابن سلام وذهب إلى معاوية يخطب بنته ونير بن معاوية وكل الأمر إلى أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها، فأحابتها بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له: إنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الصرة وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله. مطلق ابن سلام زوجته واستنجر معاوية وعده فلواء به ونس إليه عن ابنته أنها لا تأمن رجلاً يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره.

وكانما كان معاوية مهموماً بشهوات ولده في زواج أو غير زواج، فقد حدث ابن عساکر من ترجمة خديج الخصي أن معاوية اشترى جارية ببصاء جميلة فأدخلها الخصي عليه مجردة، وبينه قصيب فجعل يهوى به على جسدها ويقول: هذا المتاع لو كان لنا متاع أذهب بها إلى يزيد ثم قال: ادع لي ربيعة بن عمر الحرشي - وكان فقيهاً - فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة قرأت منها ذاك وذاك، وإنني أردت أن أبعث بها إلى يزيد فقال الحرشي لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنها لا تصلح له، فقال معاوية مع ما رأيت ثم وهبها لعبد الله بن مسعدة الفزاري مولى فاطمة بنت رسول الله، وكان أسود، فقال له: بيص بها ولدك»

وبعد فنقول إن الطبري يسند هذه الأخبار إلى أصحابها ولا يسوقها مساق التشهير؛ لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلاً على فقه معاوية فقال: «وهذا من فقه معاوية وتحريه» حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكنه استصعب نفسه عنها، فتخرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الحرشي الدمشقي.

وما من تربية ليريد تصلحه للخلافة بعد هذا «التنعيم» الذي يملأ له في شهواته وهو مقدم على رئاسة هريفة عهد سائر الخطاب بل بابن عفان، فإن الخليفة الثالث رضى الله عنه قد أجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه

الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجواري على سعة القياصرة والشوامين، وبولا تلك الخليفة الأموية التي تهادى بها تساع الملك في أهوائها وعواياتها، لما فات رجلاً وسط الأذكاء - أن هذه القرينة لا تعد إنساناً لحيازة الملك المعتز بالحيلة والحول قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلاً عن الغريباء.

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليفة الأموية وبين آداب الدين الذي يتولى خلافته، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين، لافتقده بالدنيا واستسلامه لغوايتها، وله أكثر من كلمة في هذا المعنى يقول في بعضها «إن أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه، وعمر عالمها وعالمته، وعثمان بال منها وبالت منه أما أنت فقد تصبغتها ظهراً ليطن رانقطعت إليها فانقطعت لي» ويقول في بعضها من خطبة بالمدينة «إن أبا بكر رضى الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترد»، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردّها، وأما عثمان فقال منها وبالت منه، وأما أنا فمالت بي وملت بها، وأنا ألبنها^(١٦) فهي أُمى وأنا ليدى، فإن لم تجدوسى خيركم فأنا خير لكم». وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعاً من جهة وتركية بقدرته على الملك الديوى من جهة أخرى، فإن كان الرعية لا يرتصوه قدرة للصلاح والتقوى، فهم يرتصوه مديراً لشئونهم وقائماً على مصالح دينهم

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليفة الأموية وآداب المروءة العربية كما يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين. فإن طالب السيادة يكره أن يمرل في منزلة دور مدارل الشرف والكرامة بين قومه، فإن لم يكره ذلك حباً للخلق المأثور فلهله يكرهه حباً لنفسه، وعيرة على سيادته وعلوه في نظر المكبرين لأدب المروءة سواء تحلوا بها أو تحردوا منها

ومن برادر معاوية هي هذه المنزعة المتكررة بين خلانق عشيرته وآداب العرب عامة أنه جلس يوماً مع خاصته يسألهم فيما بقى له ولهم من لدات الحياة بعد دهاب الشباب. فإذا هي عمده لدات لا تعدو مذاق الشراب السائغ وسروره بالنظر إلى بنيه، ثم تبهه منبه إلى إسفافه هذا، فانتبه ولم يكابر طبعه، لأن الأمر وراء المكابرة بإجماع يعرف وإجماع الدين.

(١٦) ألبها ابن يلبن الرعى العلام. سقاء اللبن.

روى الواقدي أن عمرو بن العاص «دخل يوماً على معاوية بعدما كبر وبق
ومعه مولاة وردان، فأخذا في الحديث وليس معهما أحد غير وردان، قال عمرو
يا أمير المؤمنين! ما بقي مما تستلذه؟ فقال. أما المساء فلا أرب لي فيهن، وأما
الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها حلقى فما أدرى أيها ألين،
وأما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألد وأطيب، وذكر مثل
ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة، ثم قال، مما شيء ألد عندي من شراب
بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بنى وبنى بنى يدورون حولي.

وعطف معاوية سائلاً فما بقي منك يا عمرو؟
قال عمرو مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته.
فالتفت معاوية إلى وردان فقال، ما بقي منك يا وردان؟
قال وردان صنعة كريمة سنية أعلقها في أعناق قوم ذوى فض وأصطبار
لا يكافئوسى بها حتى ألقى الله تعالى، وتكون لعقبى في أعقابهم بعدى.
فقال معاوية تباً لمجلسنا سائر اليوم إن هذا العبد غلبى وغلبك..»
خليفة أموية عربية مضى الرجل على سحيته فلم يخطر له أن يستبقى من
متاع الدنيا الذى عجز عنه إلا شيئاً يذاق، وشيئاً يسره من النظر إلى ذريته ثم به
المسب إلى المكرمات المأثورة فلم يحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها
وإن شئت فقل خليفة أموية وكفى فإن من أثره ما يوحى إلى صاحبه ألا
ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره، ولا بسعه أن يكرها

وهكذا كانت الخليفة الأموية مع المروءة العربية في كل مأثرة محمودة بين
عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة، وأولها مناقب الشجاعة والكرم
والنخوة، مما كان في وسع بنى أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب، ولا أن
يصغروا من حقها، ولكن التسليم للمقبة شيء، والجهد على تحصيلها شيء آخر
ولهذا مضى تاريخ بنى أمية في الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد
العرب فرسانهم المقدمين وأحوادهم المشهورين وذوى النجدة من صعوة
عشائريهم ونخبة ساداتهم، وظهر فيهم الشجعان في صدر الإسلام كيريد بن أبى
سفيان، وهو أخ غير شقيق لمعاوية، ولكنه لا يحسب عندهم ولا يعد غيرهم من
فرسان هاشم في جيل واحد، كعلي وحمزة

وسئل معاوية نفسه - وسأله عمرو بن العاص - والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم حبان؟ فقال:
شجاع إذا ما أمكنتني فرصة فإن لم تكن لي فرصة فحبان

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف المشجاعة البينة، بل حسب عليه أنه كان يأوى إلى قبة يحيط بها الحراس في معارك صفين، وأنه أسرع إلى فرسه في ليلة الهرير لينحو بحياته، ثم هداً الخطر بعض الشيء تراجع نفسه وتراجع إلى مكانه وهو آس من عاقبة هذه الرجعة، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال.

وليس من أخبار بني أمية في الحاهلية وصدر الإسلام خير واحد ينفي عنهم هذه الخليفة الغالبة عليهم جميعاً من الأثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الإيثار والمثل العليا

وبهذه الخليفة يفسر كل عمل من أعمار معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعاً بمثلها، وهو مع حزمه «الدنيوي» هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية إلا وهو منه الحرم في هذا المصطدم فكان من الحزم ألا ينوسع في أبهة الملك أو أبهة «الهرقلية والكسروية» كما كان المسلمون يسمونها في صدر الإسلام، ولكنه لم يكد يملك حتى صنع ما يصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجواري والتوسع في بذخ القصور والقصور، وكان من الحزم أن يروض يريد على كبح للشهوات، فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة في عصمة رجل حتى احتال حيلته لإمتهاعه بما اشتهى، وأن النهازين من مؤرخي العصر القديم ليعسرون صلواته الجامعة في المقاصير^(١٧) بخوجه من العيلة بعد مؤامرة الثلاثة التي قتل فيها على رضوان الله عليه ولئن صنع هذا لما نفى عنه تلك الخليفة الأموية التي تلوذ بالحيلة حيث لا يلود بها الميرأون منها، فقد قتل عمر وعلى ولم يلحاً الحس أو الحسين إلى المقاصير أو إلى الحرس المبسر لهما وهو غير قليل، وقد كانت أبهة المواكب من دأب معاوية، إذ كن - بعد - على ولاية الشام من قتل الفاروق، فلما راه الفاروق في موكبهِ أعرض عنه ثم عذفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن دوى الحاجات،

(١٧) المقاصير جمع مقصورة وهي عرفة من عرف الدار ومن المسجد مقام الامام وعرفة صغيرة مرتفعة

فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو، ودأب على اتخاذ المواقب وتسبير اجند بين يديه قبل أن يحشى عيلة من معتال.

عند هذه الخليفة الأموية بفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو حاهلوه، ولا سيما المؤرخين النهاريين من المنتفعين أو المطوعين

موقف معاوية من قضية عثمان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لفهم تاريخه وأعمال رجاله، ولكن الأخبار المقدمة على غيرها في حوادث العام الإسلامي التي أفضت إلى قيام الخلافة الأموية، إنما هي الأخبار التي لها مساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلی بالخلافة في الحجاز

فبغير هذه الأخبار التي تكشف عن موقف معاوية لا يستطيع المؤرخ أن يثبت من حقيقة البواعث التي كمنبت وراء الحوادث والحروب والخصومات، ولا يستطيع أن يعرف ما هو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير السواس والدعاة

فما هي حقيقة المسائل التي أثارها معاوية على علی وجنحت به إلى سلوك المسلك الذي اختاره هو ومعاونوه؟ ماذا منها قد حدث فعلاً، وماذا منها لم يحدث، وقيل إنه حدث للانتفاخ به في الدعاء ورد الادعاء، وفي الاتهام ورد الاتهام؟ أو ماذا منها قد حدث فعلاً وحرفه الدعاة إلى غير وجهته وأولوه بغير معاه؟ وماذا من تلك الحوادث جميعاً كان خليفاً أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعى؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ إلى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله، وبعد مقتله، ومبايعة علی بالحجاز

وكل ما وصل إلينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شيء واحد لا محل فيه للخلاف الصويل بين الناضرين إليه من الوجهة التاريخية الخالصة، وهو عمن معاوية لنفسه في كل مطلب طلبه من عثمان، وكل نصيحة أسداها إليه، وكل مشورة أشار بها عليه، فليس في هذه المطالب والبصائح أو المشورات شيء قط تجرد من منفعة ينظر إليها معاوية في حاضره أو مصيره، وكل ما عدا ذلك فقد يكثر فيه الخلاف ويؤول فيه التأويل

كان معاوية في عهد انفاروق قانعاً بعطائه السنوي وهو ألف دينار، وكان الولاية والرعية لا يشكون إجحافاً ولا محاباة فيما يرجع إلى أرزاق العمال الكبر والصغار ومنهم لولاية فلما انقضى عهد انفاروق كثرت الشكوى من تقسيم هذه الأرزاق ومن إثارة بعض الولاية بالولايات لقرايتهم من الخليفة، وكانت هذه

الشكوى إحدى الدعايات التي تذرع بها المشاغبون للثورة التي تفاقمت حتى ذهبت بحياة عثمان

ولم يكن معاوية يحفل هذه الحكمة العاشية في الولايات، ولكنه على ذلك كتب إلى عثمان يطلب زيادة عطائه، ويطلب غير ذلك أن يقطع الأرض التي قتل أصحابها من الروم أو تركوها وهجروا إلى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية، وتعلن له بكثرة وعمود الأمصار والرسل، وأن هذه الصياع المتروكة لا يؤخذ عليها الخراج، ولا تحسب من أموال أهل الدمه كما جاء في تاريخ ابن عساکر، وكانت هذه الصياع وأمثالها تلحق ببیت انمار وينفق منها على المصالح العامة ومعونة المعورين ودوى الحاجات، فلما أذن له عثمان برفعها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدامه وأعوانه في سياسته، وعمد إلى كل معترض عليه وعلى إعاقة لهذه الأموال في غير وجوها بأقصاه عن الشام ورسله إلى حيث يشاء من البلاد الإسلامية الأخرى لا يعنيه أن يصنع المشاغبون ما يصنعون في غير ولايته، وهو يعلم أنهم سيشغبون على عثمان حيث ذهبوا، وأن عثمان يلقي من الفتنة ما هو حسيه في حوارته وحديث أبي ذر في الشام معروف بنفس منه ما يدور حول موقف معاوية من عثمان كما جاء في ابن الأثير

«كان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليت أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكریم، ويأخذ بظاهر القرآن ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. فكان يقوم بالشام ويقول يا معشر الأعداء واسوا الفقراء بشر الذين يكتمون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاي من نار تكوى بها جماهم وجنوبهم وظهورهم، فمارال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأعداء، وشكا الأعداء ما يلقون منهم فأرسل إليه معاوية بألف دينار في جنح الليل فاستفها فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقل اذهب إلى أبي ذر فقل له انق حسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك وإنى أخطأت بك ففعل ذلك، فقال له أبو ذر يا بنى قر له والله ما أصبح عبدا من

(١) جنح الليل بكسر الجيم، صانعة وقطعة مث

ديانيرك ديمار، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها، فلما رأى معاوية أن نفعه يصدق قوله كتب إلى عثمان إن أبا در قد ضيق على، وقد كان كذا وكذا للذي يقوله للعقراء. مكتب إليه عثمان إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها، ولم يبق إلا أن تثب، فلا تمكأ القرح وحنز أبا در إليّ وبعث معه دليلاً وروده وارفق به، وكهف الناس ونفسك ما استطعت»

ولما خرج الشاعبون بالعتبة من الكوفة إلى الشام بأمر عثمان كتب عثمان إلى معاوية كما جاء في ابن الأثير «إن مفرأ قد خلفوا للعتبة فأقم عليهم وابهم فإن أنست منهم رشداً فأقبل، وإن أعيوك فارددهم على». فلقبهم معاوية وزجرهم وأغلظ لهم، ثم أتاهم بعد ذلك فقبل لهم. إني قد أذنت لكم فذهبوا حيث شئتم لا يفتح الله بكم أحداً ولا يضره، ولا أنتم برجال متفعة ولا محصرة فإن أردتم السعاة فالزموا جماعتكم ولا يبطركم الإيعام فإن البحر لا يعترى الخيار. انهبوا إلى حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم». وكتب إلى أمير المؤمنين يهون له من شأنهم ويقول عنهم: «ليسوا لأكثر من شغب وبكهر».

ولم يكن أمرهم ليعيه، فلبهم ذهبوا حين سرحهم يقصدون الجزيرة فعلم بهم عبدالرحمن بن خالد فما أعياه أمرهم ودعاهم إليه ولم يذهب إليهم كما فعل معاوية فتوعدهم عبدالرحمن وعيداً لا يشكون فيه وقال لهم: «يا آله الشيطان! لا مرحباً بـ لا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم - بعد - مشاط خسر الله عبدالرحمن إن - يا معشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم - لا تقولوا لي ما يلغى أنكم قنتم لمعد - ابن خالد بن الوليد - أبا ابن من قد عجمته^(٢) العجماء أنا ابن عاقى الردة والله لنس بلغنى يا صعصعة أن أحداً من معي دق أنفك ثم أمصكه - أي جعلك تمصه - لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى فأقامهم شهراً كلما ركب مشاهم، فإذا مر به صعصعة قال: يا ابن الخطيئة! أعلمت أن من لم يصلحه الحير أصلحه الشر مالك لا تقول كما بلغني أنك قلت لسعيد ومعاوية؟ فيقولون: نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله. فمالوا به حتى قال: تاب الله عليكم، وسرح الأشر إلى عثمان، فقدم إليه ثانياً، فقال له عثمان احل حيث شئت. فقال: مع عبدالرحمن بن خالد. فقال ذلك إليك، فرجع إليه».

(٢) عجمته - عجم العود عنه ليعلم صلابته من خوره

وعلى اختلاف الروايات في تنقل هذه الفئة بين الكوفة والشام، وميما قالوه وقس لهم، لم يتغير موقف معاوية على جميع هذه الروايات، وهو موقف لرحل الذي لا يبالي بعد أمائه على ولايته أن تنجم الفسدة حيث نجمت، وأن يبتلى بها الخليقة بنجوة منه

وهو تعاقب الخطب وبطر الخليقة المحصور حوله يطلب الرأي من دوى الرأي بين خاصته وخاصة المسلمين واجتمع عنده رهط منهم يوماً أشاروا عليه بما بدا لهم ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له: يا ابن عمي ويا ابن خالتي إنه لم يبلغني عنك في أمرى شيء أحبه ولا أكرهه، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا وقد أحببت أن تعلمني رأيك فيما بيدي ربيك، فاعتذر قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليتني بعد العافية وأدخلتني في الضيق بعد السعة ووالله إن رأيي لك رأي من يجلسك ويعرف قدرك وسابقتك ووالله لو ددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليقتان قبلك. فإن كان شيئاً تركاه لأنه ليس لهما، علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما، وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن يقال منهما مثل الذي نيل منك، تركته لما تركاه له، ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك.

قال عثمان فما منعك أن تشير على بهذا قبل أن أفص ما فعلت؟ قال ابن عباس: وما علمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعله؟ قال فهب لي صمتاً حتى ترى رأيي.

وخرج ابن عباس وبقي معاوية فسأله عثمان، فأجاب كما جاء في الإمامة والسياسة: «الرأي أن تأتن لي بصرب أعماق هؤلاء القوم قال من؟ قال: على وطلحة والزبير قال عثمان: سبحان الله! أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا دنس ركبوه؟ قال معاوية: فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلوك. قال عثمان لا أكون أبى من خلف رسول الله في أمته بإمراق الدماء

قال معاوية فاخترمي إحدى ثلاث خصال!

قال عثمان ماهي؟

قال معاوية أرتب لك ماهياً أربعة آلاف من خيل أهل الشام يكومون لك رداءاً^(٣) وبين يديك يداً

(٣) رداء: بكسر الراء المعون والمصر

قال عثمان، أرزقهم من أين؟

قال، من بيت المال

قال عثمان أرزق أربعة آلاف من الجنود من بيت مال المسلمين لحرب دمي؟

لا فعلت هذا

قال فتاوية

قال، وما هي؟

قال، فرقهم عنك فلا يجمع منهم اثنان في مصر واحد، واضرب عليهم البعوث

ولتدب حتى يكون دبر^(٤) بعير منهم أهم عليه من صلاته

قال عثمان سبحان الله، شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله

وبقية الشوري، أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبائهم؟ لا

أفعل هذا

قال معاوية فتالته!

قال، وما هي؟

قال، اجعل لي الطلب بدمك إن قبلت.

قال عثمان، نعم هذه لك إن قتلت فلا يطز^(٥) دمي.

هذه رواية الإمامة والسباسة، وفي سائر الروايات أن معاوية قال له غير ذلك

أخرج معي إني الشام قبل أن يهجم عليك مالا تطيقه قال لا أبتغي بجوار

رسول الله بدلاً

تلك حملة الآراء التي أشار بها معاوية على الخليفة، وما من رأى منها إلا

والسمع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان، وربما كان في معظمتها ما يصره

ولا يجديه

فليس قتل علي وطلحة ولزير بالأمر لهي الذي يدفع الشر عن الخليفة،

وليس هو بالحطة التي يحترها معاوية لنفسه لو كان في موضع عثمان وقد

أعفى معاوية نفسه من التصييق على صعصعة ورمطه كما صدق عليهم

عبدالرحمن بن خالد، فليس من خطته التي يحترها لنفسه ويحمل تبعتها على

(٤) دبر بفعلتين، الجرح يكون من ظهر الدابة

(٥) يطز دمي طز دمه بالمجهول ذهب مدر

عائقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلي وطلحة والزبير، كما أشار على عثمان، وإما ببوء عثمان تبعثها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير منافس يناقسه عليها، بعد مقتل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر. أما أهل الشام فهم في ولايته لا يعرفون أحداً غيره يناقسه باسمهم عند اختلاف المختلفين، وبسبب ثمة مختلفون إذا بعد انقضاء في الأقطاب المفتولين.

وأما الإشارة على عثمان بإقامة أربعة آلاف من خي الشام يحرسونه فهو تسليم لحجاز إلى يد معاوية في حياة الخليفة وبعد حياته، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التي يرصاه، ولا تقع هذه البيعة أصلاً لمن يستحب لها أو لا يستجيب.

والخروج من المدينة إلى الشام مع معاوية ينقل العاصمة إلى دمشق، ويحول القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية في جميع الحالات.

وقد نقل الرواة والمؤرخون عن كل ناصح أنه أشار على عثمان بترك خصة من خطمه في السياسة العامة، ولم ينقل مثل ذلك عن معاوية في حليل من الأمر ولا يسير، ولم يقف مثل موقفه غير مروان بن الحكم الذي لا يملك أن ينهي عثمان عن شيء، لأنه كان سبب الشكوى وصاحب التبعات جميعاً في كل مأخذ من مأخذ الثوار على العهد كله والسياسة بجماليتها، فإذا كان سكوت مروان عن النصيح بالتعير معهوداً متوقعاً فمثل هذا السكوت من معاوية لا يفهم إلا على وجه واحد. وهو أنه يعفى نفسه من تبعة البصيرة ليملى للخليفة فيما يرضاه، ويعلم أن التعير الباع يصيبه في مقدمة الولاية المحسوبين على لعهد كله، وقد كان يتعهد للخليفة بكفايته أمر الشام ويسأله أن يفرص على الولاية الآخرين مثل ذلك اليوم فإن لم يقدروا مثل قدرته كان حقاً به أن يخلفهم أو يفض يديه من العمل والمشورة.

وأثبت ما ثبت من مفعلة معاوية بتلك المطالب التي عرضها على الخليفة في شدته. مطلبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله، فإنه بمثابة ولاية العهد لمن صاحب الأمر إذ كان القصاص إنما يتولاه القائم بالشرعية حيث تقام حدود.

الدين، ولم يكن عثمان ليحمشي عليه القتل من فرد يعتدى عليه عيلة فيكون عس
وسى الدم أن يقتاده إلى الحاكم انقائم بالمشريعة، ولكنه خشى عليه القتل من
جماعات ثائرة لا يتولى إدانتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من
سلطانها وسلطان من تؤيده ونطيعه على شرطها، فإذا كان معاوية قد طلب ولاية
الدم بعد مقتل عثمان، فقد طلب ولاية العهد ومارمه وهو يعلم أنه مقتول.
وأوشك الخليفة أن يقتل. هذا مظهرًا في أرحاء العالم الإسلامي يومئذ لم يجد
أحدًا أقدر على جديته من معاوية، لأنه الوالى المستقر فى ولايته منذ عشرين سنة
يفضى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه، وعيره من الولاة فى ذلك
العهد بين معزول أو معتزل أو مهدد من سلطان، كما هدد الخليفة من عاصمته، ومن
كان حول الخليفة من سراوات^(١) المدينة فليس من وسعه أن ينصره بقوة أقوى من
الدولة وحراسها وأشياعها، فهذا جمع السفهاء حماهم انذى يعلب الدولة على
قوتها وهيبتها، فحرى ألا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الرحر
والنصيحة.

وأما كان القول من السراوات الآخرين فواجب معاوية واضح لا لبس فيه، وليس
مما يقله من هذا الواجب أن الخليفة أبى عليه إقامة جيش دائم إلى حواره يزرقه
من بيت المال، فإن عمل الجيش الدائم غير عمن النجدة العاجية، ولا يلام والى
الشام على نجدة عاجلة بعد أن طلب الخليفة النجدة من الولاة، ولو أنه كان يلام
عسى ذلك، لكان اللوم أهون عليه من ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه وهو معتذر
بأمر صدر إليه فى حال غير هذه الحال.

لقد كان ذرو الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم، كلما
أخدهم باللوم، لأنهم لم يصبروه، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر بن وائلة الصحابي
كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى.

قال له معاوية أنست من قتلة عثمان؟ قال أبو الطفيل لا. ولكنى ممن
حصره فلم يصبره

قال: وما منعك من نصره؟

(١) سراوات. جمع سراة. وسراوات القوم اشراقتهم وساداتهم

قال لم تنصره المهاجرون والأنصار.
فقال معاوية أما لقد كان حقه واحباً عليهم أن ينصروه
فقال أبو الطفيل فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام؟
فقال معاوية أما طلبى بدمه نصرة له؟

فصحت أبو الطفيل ثم قال. أنت وعثمان كما قال الشاعر
لا ألعيدك بعد الموت قدينى
وهى حياتى ما رودتنى رادى
ووقعت الواقعة ومات الخليعة قتيلاً ونهب معاوية بطالب بدمه ويكر على
على بيعته؛ لأنه لا يسلمه قتلة عثمان، ممن يذكرهم إجمالاً أو يسميهم
بأسمائهم، وأن الأمر كله بعد حين إلى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء، فلم يأخذ
واحدًا منهم بجريرة مشهودة ولم يحاسب أحدًا على جريرة مستورة تتطلب
الإشهاد. وكان يلقي الرجل منهم فلا يريد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل.
ألست من قتلة عثمان؟ ثم يصرفه في أمان، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزوداً
بالعطاء.

وظهر من مبدأ الحصومة أن العيرة على عثمان لم تكن تلك العيرة اللاعبة^(٧)
التي تثير الثائرة وتضرم الحروب؛ فإن معاوية قد حالف عمرو بن العاص
وكافأه بولاية مصر، وهى ولاية عزله منها عثمان وبكته^(٨) بذكرها يوم صاح به
بين الجموع المندمرة يسأله التوبة والاستغفار، وكاد الرواة يجمعون على كلمة
نقلت عن لسان ابن العاص فحواها أنه كان يلقي الأعرابي في الياضية فيحرضه
على عثمان فإن لم يصح عن ابن العاص أنه قاتل تلك الكلمة فموقفه من فتنة
عثمان كموقف ذوى الرأي جميعاً ممن كان معاوية يحاسبهم على تركهم عثمان
بغير نصير، وكان فى وسعهم كما قال أن ينصروه
ولم يخف هذا الموقف الذى لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته، فإنهم كانوا
يرون معاوية هيلقونه بالبكاء ويذكرون أباهم لينذكروه بدمه المطلول ووعده
بالثأر به، ثم سكوته عن الثأر بعد أن أمكنه منه ما لم يكن فى إمكان أحد من
المطلوبين به فى رأيه

(٧) اللاعبة يقال. مرقى لاعج أى معرق

(٨) بكته قرعه وعصفه ولألمه أشد اللوم

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد وقال غيره مع اختلاف قليل في لسياق.
«قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت
عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباه، فقل معاوية يهيه أخي، إن الناس
أعطونا طاعة وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حليماً تحته عصب، وأظهرو لنا دلاً
تحته حقد ومع كل إنسان سيف ويرى موضع أصحابه، فإن مكنتهم مكتوا بنا،
ولا ندري أعلينا تكون أم لنا؟ ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن
تكوني امرأة من عُرَض^(٩) الناس».

فالمطالبة بدم عثمان بما كانت قضية قائمة حين كانت لارمة للتحريض
على علي وبعث الدعوة والتمكين لمعاوية، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن في وسع
علي أن يفعله سكنت عن الثأر وحديثه، إلا ما كان من قبيل الحوار العقيم في
المحافل، وقبل من نفسه العذر ضعيفاً هريلاً، ولم يكن يقبله قوياً معززاً بالواقع
والهيئة ممن لا لوم عليه

ذلك أبسر ما يقال عن حقيقة الموقف من قضية عثمان ومطالبة معاوية بدمه،
وكل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبر مقتله ويعدده فهو ثابت النفع لمعاوية
غير ثابت النفع لعثمان، ولا تجرى وراء النيات وإن كان للمؤرخ حق في النظر
إليه قد يحمده منه حيث لا يحمده من القصاص، فإن المؤرخ مطالب بتقويم أقدار
الرجال وتفسير أسرار الحوادث واستعريف بالأخلاق والاضمائر، ولا ضرر من
استقصائه لما وراء الظواهر والدعوات، بل الضرر كل الضرر أن يأخذ بالظواهر
والدعوات دون استقصاء

وقضاء التاريخ في موقف معاوية من عثمان أنه موقف يسقط كثيراً من التهم
التي كان يكيلها لحصومه، ويسقط كثيراً من الأعذار التي كان ينتحلها لنفسه،
ويوجب على المؤرخ أن ينفذ من وراء التهم والمعاذير إلى تفسير واحد لوقائع
الثورة التي ثارها معاوية باسم عثمان فإن أصدق البواعث لها أنها ثورة في
طلب الملك أعوزتها الحجة فائتمستها من مقتل الخليفة الشهيد.

(٩) عرض بصم العين يقال، هو من عرض الناس أي من العامة

النشأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين، أخبرهما عندنا قليلة متقطعة، ولكنها من نوع الأخبار التي تدل باللمحة العارضة، ويغنى القليل منها عن الكثير في وصف الطباع والأخلاق، فنعرف منها أي رجل وأي امرأة كان أبواه من الرجال والنساء. من أنبياء الحاهلية عن النساء أن هند بنت عتبة أم معاوية كانت من نساء الأسر التي تعودت أن تستشير بنتها في أمر زواجهن، وقد خطبها اثنان، فقام لها أبوها «أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه في أهله وماله

وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه في الحسب والنسب والرأي والأريب، مدرة»^(١) أرومته وعز عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله».

فقلت: «يا أبت. الأول سيد مضياح للحر، فما عست أن تلين بعد إبانها وتضع تحت جناحه إذا تابعها بعلمها فأشرت»^(٢) وخافها أهلها فأمنت» ساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أحببت فمر خطأ ما أحببت، فاصو ذكر هذا عني ولا تسمه على بعد وأما الآخر فبعل الفتنة الحريدة»^(٣) الحرة العفيلة»^(٤)، وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة، فزوحنيه»

وبعلم من كلام هند هنا أنها امرأة قوية الأنوثة يرضيها أن تكون زوجه لرحل حدير بالمهاجرة والطاعة ولا يرضيها أن يكون روحها لعبة في يديها مطواعاً لأمرها

ولم يرد في أخبار هند خبر غير هذا إلا كان فيه إبانة عن جانب من جوانب هذه الأنوثة القوية، ربما بلغ في بعض أحوالها مبلغ الوحشية، ولكنه على هذا يطر وحشية أنثوية تشاهد من ضراوة الإنسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان كانت تلقب بأكلة الأكباد لأنها أكلت كب حمرة عم النبي - عليه السلام - بعد أن قتل رجالها في وقعة بدر وحزن المرأة على رجالها شديد يشدد مع اشتداد

(٢) فأشرت بطرت

(٤) العفيلة: الكريمة المغيرة من النساء.

(١) مدرة: من قوم رعيهم القوم وخطيبهم

(٣) الحريدة: المرأة الصبية الطويلة السكون.

أنوثتها، فإذا كانت في هذه المثلة "وحشية أنثوية" تشتفى بها المرأة إذا جمع بها
حزبها وأدهلها عن صوابها، وليست مما يشتفى به أقوياء الرجال.

ولم تمس هند حربها على رجالها في حصرة اسبي - عليه السلام - إذ جاءته
مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة.
قال صلوات الله عليه تباعى على ألا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن. إلى
أن قال: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله. هل تزنى الحرة؟

ثم قال: ولا تقتلن أولادكن

فقلت أما الأولاد فقد ربيهاهم صفاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت بهم أعلم
وإن سألها «هل تزنى الحرة؟» لمن تلك الأخبار التي قلنا إنها تدل باللمحة
العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير.

إبه سؤال يدل على الأنفة من الزنى، لأنها كرامة جاه، ولأن الزنى خلعة من
خلال الإماء والسبايا، لا تعهد في الحرائر الكريمات، فالأنفة من الضعة هنا أكبر
من الإعراس عن الرذيلة، وقصبتها مع زوجها - إهانتها بتهمة الزنى - لا تقبل
عندها العفران ولا تقبها البراءة منها، وإن شهد بها من تقبل شهادته في
الجاهلية ولا يظهرون على البراءة حجة أقوى عندهم من تلك الشهادة.

أخرج الخرائطي في الهواتف عن حميد بن وهب قال

كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش،
وكان له بيت للضيافة يغشاه الماس من غير إذن. فخلا البيت ذات يوم، فقام
الفاكه وهند فيه، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته، وأقبل رجل ممن كان يغشى
البيت فواجه، فلما رأى المرأة ولَّى هارباً فأبصره الفاكه فانتهى إليها فضربها
برجله وقال: من هذا الذي كان عندك؟ قالت: ما رأيت أحداً، ولا انتبهت حتى
تبهتني فقال لها الحقى بأهلك وتكلم فيها الناس فخلا بها أبوها، فقال لها
يا بني، إن الناس قد أكثروا منك فأبشئى بذاك، فإن يكن الرجل صادفاً دسعت
إليه من يقنله فسقط عا المقالة، وإن يكن كادباً حاكمته إلى بعض كهان
اليمس، فحلفت له - بما كانوا يظهرون به في الجاهلية - أنه كادب عليها فكان

(٥) مثله بالضم التنكير.

عتبة للفاكهة. إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم محاكمتي إلى بعض كهان اليمن. فخرج العاكة في جماعة من بني مخزوم، وخرج عتبة في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن، فلما شارها البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها، فقال لها أبوها يا بنية، إنني قد أرى ما بك من تغير الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك، قالت لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، فلا آمنه أن يسمني بسماء تكون على سبة^(٦) هي العرب، فقال لها إنني سوف أختبره لك قبل أن ينظر في أمرك فصفر^(٧) بفرسه حتى أدلى ثم أدخل في إحليله^(٨) حبة من لحطة، وأوكأ^(٩) عليها بسير، وصبحوا الكاهن؛ فنحر لهم وأكرمهم، فلما تعدوا قال له عتبة إنا قد حثناك في أمر، وقد خبات لك خبيثاً أختبرك به فانظر ماهو؟ قال برة في كمره قال. أريد أهيئ من هذا، قال. حبة من بر في إحليل مهر، فقال عتبة صدقت. انظر في أمر هؤلاء النسوة فجعل يدنو من إحداهن، ويصرب كتفها، يقول. انهضي، حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال. انهضي غير رسحاء ولا زانية، ولتلدن ملكاً يقال له معاوية فنظر إليها العاكة فأخذ بيدها فنشرت يدها من يده وقالت. إليك. والله لأحرصن أن يكون ذلك من غيرك، فتزوجها أبوسفیان فجاءت بمعاوية وقصة الكاهن هذا تسقط بحدافيرها ويبقى من خبر هند مع زوجها أنه اتهمها فأفتت أن تعود إليه بعد أن أراد هو أن يعيدها، لأنها تعصب لكرامتها أن تعيش مع رجل يمزلها دون منزلتها من حرائر النساء. وينقل عنها في أسانيد متعددة أنها بشرت بسيادة معاوية على قومه، فقالت. ثكلته إن لم يسد إلا قومه

قال الشافعي فيما رواه الطبري «قال أبو هريرة رأيت هنداً بمكة كأن وجهها قلقة فمر وحلفها من عجيرتها مثل الرجن الحالس، ومعها صبي يلعب، فمر رجل فمطر إليه فقال. إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه فقالت هند إن لم يسد إلا قومه فأصابه الله وقال محمد بن سعد أنبأ علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف، قال نظر أبوسفیان يوماً إلى معاوية وهو غلام، فقال لهندي إن ابني

(٦) سبة عار

(٧) صفر بفرسه دعه ليشرب عند ورود الماء

(٨) أوكأ، أوكأ القرية. شد رأسه برباط

(٨) إحصين. محرى البين.

هذا لعظيم الرأس، وإبه لخلق أن يسود قومه فقالت هند قومه فقط؟ ثكلته إن لم يسد العرب قاطبةً فلما ولي عمر يزيد بن أبي سفيان ما ولاه من أمر الشام، خرج إليه معاوية، فقال أبوسفیان لهند كيف رأيته؟ صار ابك تاسعاً لابني. فقالت إن اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك. »

وربما تناثرت الأخبار في كتب الأدب والتاريخ بمبر هذه الأحاديث عن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وأم معاوية، ولا حاجة إلى نقلها أو تلخيصها جميعاً، لأنها تتفق في صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالعس والحسب، وإما ثواقب ما نسميه اليوم «بالشخصية» الملحوظة بين ذويها وقومها، وليست من عداد الزوجات والأمهات العنسيات في الغمار، كما كان سائر النساء في بيئتها والقصة التي بدأنا بها هذا الفصل تبدى لنا أبا سفيان في حياته البيتية على صورة لم تذكر في قصة أخرى، فعلم أنه سيد بيته، كما كان سيد عشيرته «وأنه شديد العيرة لا يرفع عصاه عن أهله».

وبقية القصة الأخرى تبدى لنا أبا سفيان في صورة من صور الحياة البيتية، يقول من شاء إنها حياة تقدير، ويقول من شاء إنها حياة تفتين.

فقد وصفته هند بأنه رجل «مسبك»^(١٠) وأنها «كانت تصيب من ماله الهبة والهنة»^(١١) ولا ندري أكان ذلك حلالاً لها أم حراماً.

وكان أبوسفیان شاهداً، فقال أما ما أصبت منه فيما مضى فأنت منه في حل. أما كلام عتبة. في غير ما تقدم من هبات أبي سفيان. فهو من المشهور المتروك في أبناء الحاهلية والإسلام، فقد كان سيداً «موسعاً عليه، منظوراً إليه في الحسب الحبيب والرأي الأريب، مدره أرومته وعر عشيرته » كما قال عتبة في تخطيطه لبنته بين الرحلين.

معاوية إذن ينتمي إلى أبوين قويين في عشيرة قوية، ولعله ورث من جانب مه أكثر مما ورث من جانب أبيه، فهو أشبه بها في تكوين جسمه، وأشبه بها في وسامه ملامحه، وأشبه بأصولها المعروفة في خلق الأناء وبطء العصب، وإيثار لمطاولة والمراوغة على المعارك والحروب فأبوها عتبة كان قائد تريمش في وقعة بدر، وكان رأيته الذي أصر عليه، ولم

(١٠) مسبك بخيل

(١١) الهبة الشيء

يقفه عنه غير إجماع مخالفه أن تنصرف قريش من غير قتال، وأن يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع إلى عشيرته، وينطروا ما عسى أن يكون من شأنهم جميعاً بعد ذلك

وقد يرى بعض المناظرين في الوراثة أن المرأة التي اشتهرت باسم «أكلة الأكباد» لم تثر الأناة ويطء الغضب من أبيها، ولم تثر ابداً هذه الخليفة فيما أودثته من خلائقها

وإنه لراى فيه نظر، أو هو حدير بالنظر، فإن هذه الصراوة ليست من تلك الأناة

ولكننا حريون أن نذكر أن «العياط» غير العصب في دخيلته وفي مدته وأجله. فقد يشتهر الإنسان بأنه من أهل «العياط» ولا يشتهر بأنه من أهل العصب، وقد يزول الغضب لساعته، ويبقى لغيظ سنوات في طوية صاحبه هذا فيما ينطوى عليه الشعور.

وغير هذا أن لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه وأن شفاء الغل بأكل كبدة القتل جماع أنثوى لا يضارعه حماح مثله في الرجال. فلعلها في قول الأناة كأبيها أو كابنها، ولكنها في مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك

ويجوز مع هذا كله أن يكون معاوية وارثاً بعض الخلق من حده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها، لأن الوراثة قد تنقطع بين الحسيير، فتكون الخليفة الموروثة في الجدود ولا تكون في الأمهات.

أما الوراثة التي لا شك فيها، فهي وراثة تكوينه الحسدى من أمه، وهي وراثة طالما أشار إليها معاصروه وذكرها فيها اسم أمه، ولم يذكر اسم أبيه، وقد ترهل من فرط الجسامة في كهولته، ولم يكن لأحد من السفيانيين مثل هذا الترهل في الكهولة أو الشباب.

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتصح من سياسته كلها في أيام الخلافة وأيام الرلاية من قبلها، فإذا صدق عليها وصف عاب عليها، فوصف السياسة «الحاسنة» التي تدبر وتدبر وتترك بمساعي وأرحوق للعاملين المأمورين

كان معاوية «أبيض جميلاً طويلاً أخلق»^(١٢) وقد أصابته لوقمة^(١٣) في آخر عمره
فكان يستتر وجهه»

وروى الصبري بإسناده عن ابن عمرو أنه قال: «ما رأيت أحداً أسود من
معاوية»، وسئل ولا عمر؟ فقال: «كن عمر خيراً منه وكان معاوية أسود منه»
ونقل عن العوام بن حوشب أنه كان يقول: «ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ
أسود من معاوية قيل: ولا أبوبكر؟ فقال: كان أبوبكر وعمر وعثمان خيراً منه
وهو أسود»

وهذا السود ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبويه، وباط بها
حقه وحق عشيرته في الرئاسة، ودارب مساعيهم وظواهرهم وبواطنهم كلها على
هذا لسود وعلى الغيرة عليه جيلاً بعد جيل.

وقد بدا أن هذا كانت تعاف الرني أنفة ولا تعافه ورعاً ونزاهة، ولا سحقاً إذا
فهما من بعض كلام أبي سعيد أنه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه،
لأنه يأبى لمروءته أن يصغره أحد لكذبه وإن لم يعلن ذلك بلسانه وهكذا قال
حين سئل في بلاد الروم عن النبي - عليه السلام - فإنه سمع سائله يخبره من
الكذب فأنف أن يكذب على مسمع من شهود سكوت

ومدار الطموح كله في نفس معاوية على هذه الحصلة التي جعلت تراث القوم
كله رهياً بمزاياهم الاجتماعية، وجعلت هذه لمرايا كلها رهية بمظاهر الرئاسة
والسيادة.

وبحس نعرف ما تعمه في صغره مما كان يعمه في كبره، إذ لم تحر عدة
لرواة والمؤرخين في الجاهلية بالتحدث عن الأطفال الصغار، إلا ما جاء عرساً
في أثناء الكلام عن أبائهم وكبرهم، ولا استثناء في ذلك لأبناء الأسر والبيوتات
ومن ترشحهم أحسابهم لمكان الرئاسة بعد سوعهم مبلغ الرجال، وبعده لم يكن
همالا من الرواة والمؤرخين وسبعاراً لأمر أولئك الأطفال، وإنما كان سكوتاً
مهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من أبناء البيوتات
حميماً ولا ينفرد فيه أحد منهم بتعليم خاص لوظيفة خاصة

وقد تعلم معاوية القراءة والكتابة والحساب، وتتفق الأخبار على كتابته للنبي

(١٢) صحيح مسند شعر الرأس.

(١٣) لوقمة تشويه

عليه السلام . ولا تتفق على كتابته للوحى ، ولا على حفظه لأيات من القرآن تلقاه من النبى كما كان كتاب الوحى يتلقون الأيات لساعتها ، والأرجح أنه لم يكن معروفاً بحفظ شيء من كتابة الوحى فى أيام جمع القرآن الكريم ، ولو علم عثمان . وهو من ذوى قرابته . أن عنده مرجعاً من المراجع يثوب إليه ، لرجع إليه كما رجع إلى غيره .

وتعليم معارية فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم ، والإلمام بأخبار أيامهم ، كتعليم غيره من عليّة قومه ، إلا أنه كان على شغل خاص بالاستماع إلى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة ، وربما قرئت له هذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرؤها له من يعرف لغاتها ، وقد سمع بعبيد بن شربة الجرهسى وعلم أنه يعنى تواريخ التيابعة والأكاسرة ، فأرسل يستقدمه من صبعاء وأمره بكتابة ما وعده من تلك التواريخ ، فآلف له كتاب « لملوك وأخبار الماضين » وهو أول كتاب يحدث عن فحواه

وبلاغة معاروية فى كلامه بلاغة سوية لا تقلو ولا تسف عن بلاغة أمثاله وبظنه يبين عما يقصد ، ويحتفل بالقول ، فينقاد له طبعه الميسر للعرسى الفصيح من أبناء عصره ، ومن رسائله المحفوظة رسالة إلى زياد بن أبيه يتوعده فيها ، ويدعوه إلى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه ، ويقول منها « إنك عبد كفرت البعنة واستدعيت البقعة ، ولقد كان الشكر أوفى لك من الكفر ، وإن الشجرة لتصرف بعرقها وتنزع من أصلها ، لا أم لك ، بل لا أب لك ، قد هلك وأهلك وظلمت أنك تخرج من قبضتى ولا يدالك سلطانى ، هيهات ! ما كل ذى لب يصيب رأيه ، ولا كل دى رأى يصح فى مشورته أمسى عبد واليوم أمير خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمية ، وإن أذاك كتبى هذا ، فخذ الناس بالطاعة والبيعة وأسرع الإجابة ، فإت إن تفعل قدمك حققت ونفسك تداركت ، وإلا احتطفتك بأصعف ريش ، وتلتك بأهون سعى ، وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا فى زمارة " تمشى حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيمك فى السوق وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه ، والسلام . »

(٩٤) زمارة السجور ، وهو قلانة تجعل فى عنق الكلب

ومن ردوده المحفوظة رده على الإمام على حين دعه إلى البيعة يقول فيه .
 « لعمرى لو بايعك القوم الدين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان، كنت كأبي بكر
 وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين، ولكنك أعريت بعثمان المهاجرين وخذلت
 عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وهوى بك الضعيف، وقد أبى أهل اشام إلا نمالك
 حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كاست شورى بين المسلمين، ولعمرى ما
 حجتك على كحجتك على طلحة والزبير؛ لأنهما بايعاك ولم أبايعةك، وما حجتك
 على أهل الشام كحجتك على أهل لعراق؛ لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل
 الشام. وأما شرفك من الإسلام وقربتك من رسول الله ﷺ وموضعك من قريش
 فليست أدفعه...».

وكن يتكلم مرتجلاً فيحسن الجواب في مقامه، ومنه جوابه لعدي بن حاتم
 حين أنه يدعو إلى بيعة على، فسمع منه دعوته على ملاً من صحبه، وأجابه
 قائلاً

«. كأنما جننت مهدياً ولم تأت مصلحاً، هيهات يا عدى! كلا والله، إنى
 لأبى حرب ما يقعق لى بالثمان^(١٥)، وإنك والله لمن المحلبين على ابن عفان .
 رضى الله عنه . وإبك لمن قتلته وأرحو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به
 هيهات يا عدى بن حاتم! لقد حلت بالساعد الأشد...».

وكان يحتفل بتحضير الكلام، فيقول كما قال فى صفيين «الحمد لله الذى دنا
 فى علوه وعلا فى دسوه، وظهر وبصر، وارتفع فوق كل دى منظر، هو الأول والآخر،
 والظاهر والباطن، يقضى فيفصل، ويقدر فيعبر، ويعبر ما يشاء، إذا أراد أمراً
 أمصاه، وإذا عزم على شىء قصاه، لا يؤامر^(١٦) أحداً فيما يملك، ولا يسأل عما يفعل
 وهم يسألون . والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا وقد كان فيما
 قصاه الله أن ساقنت المفادير إلى هذه البقعة من الأرض، ولقت بيننا وبين أهل
 العراق فبحس من الله بمنظر، وقد قال الله سبحانه وتعالى «ولو شاء الله ما
 اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» انظروا يا أهل الشام! إنكم عدا تلقون أهل العراق،
 فكونوا على إحدى خصال ثلاث. إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم

(١٥) الثمان. جمع ثمن بالفتح وهو القرية الفلق الصغيرة

(١٦) يؤامر يشاور

يغفوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى برلوا بيضتكم^(١٧)، وإما أن تكونوا قوماً
تصلبون يدم خليفتم وصهر مبيكم، وإما أن تكونوا قوماً تدبون^(١٨) عن نسائكم
وأبنائكم فعليكم بتعوى الله والصبر الجميل، واسألوا الله لنا ولكم النصر، وأن
يفتح بيننا وبين قوماً بالحق، وهو خير الفسحين»

وهذه خطبة ربما أضيف إليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها،
كالمقابلة بين العلو والدنو، وبين القضاء والقدر، ولكنها فيما عدا ذلك لا تستغرب
من زمانها ولا موضعها، وقد خطب معاوية لاشك في ذلك، وما بقي من خطبه
غير مستغرب من زمانه وموضعه، فهو في طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها، ومنه
آخر كلامه قبل موته حيث قال:

«أيها الناس إن من زرع قد استحصد، وقد طالت عليكم إمرتي حتى مثلتكم
ومللتمونني، وتميت فراقكم وتميتكم فراقى، وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر
معى، كما لم يأتيكم قبلى إلا من كان خيراً منى، وإن من أحب لقاء الله أحب الله
لقاءه، اللهم إني أحببت لقاءك فأحبيب لقائى».

وتحفظ به الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير الموفق^(١٩) الجميل، ولكنها
غير كثير، فمنها قوله «إن السطان يغصب غضب الصبى، ويبطش بطش الأسد»،
وقوله «لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، أرخياها إذا شدوها، وأشدها
إذا أرخوها»

ودخل عليه عمرو بن العاص فراه يرقص إحدى بدته، وكأنه لمع منه تعجباً
لفعله، فنظر إليه وهو يقول: هذه تفاحة القلب.

فلم يكن من المفحمين^(٢٠)، ولا من ذوي السجية في القول، وقد سمع غير مرة
يقول ما معناه إنما شيبى حذر الخطأ في الحواب
ونذر بين معاصريه من الديهين من لم تنسب إليه بيات من الشعر تصح أو لا
تصح في النقل والرواية

وقد نسب إلى الحسن بن على - رضى الله عنه - أنه عيّر أبياتاً كتب بها إلى
أبيه يحذره من الإسلام، وهى

(١٧) بيضتكم، بيضه القوم ساحتهم

(١٨) تدبون، تداهون

(١٩) الموفق من الكلام، الحسن المعجب (٢٠) المفحمين امحم الرجل غصمه، أسكتته بالحجة

يا صخر لا تسلمن يوماً فتفضحننا بعد الذين بهدر أصبحوا مزقاً
خالي، وعمى، وعم الأم ثالثهم وحفظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركن إلى أمر تكلفنا والراقصات به في أمرنا للخرقا^(٢٢)
فالموت أهون من قول العداة لقد حاد ابن حرب عن العزى إذا فرقاً^(٢٣)

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه وما يسبه، وما كان معاوية على مبعده من أبيه فيكتب إليه، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش إلى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمراً دونه، وهي - بعد - أبيات ليست من نفس الشعر في صدر الإسلام ولكنها تشبه المفطوعات التي فاضت بها الكتب الموضوعة في حرب صفين، وتكاد تلقى في روح القارئ أنهم في ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من لنثر إلا ومعه سطر منظوم.

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التي قيل إنه بعث بها إلى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها إلى مبايعة يزيد بولاية العهد، وهي

رأيت كرام الناس إن كف عنهمو بحلم رأوا فضلاً لمن قد تحلما
ولا سيما إن كان عفوا بقدره فذلك أحرى أن يحس ويعظما
ولست بذى لوم فتعذر بالذى أتاه من الأخلاق ما كان الأما
وكن تحشألت تعرف غيره وقد غش قبل اليوم إبليس ادما
فما عش إلا نفسه في فعالة فأصبح ملعوناً وقد كان مكرما
وإلى لأخشى أن أمالك بالذى أردت فيه خزي الله من كان أظلما
ففي هذا الشعر من نسق عصره، ولا من عادات رجاله في مقام كهذا المقام، ولكن الأمر الذي يعهد فيهم مع روايتهم للشعر والمث أنهم يستشهدون بالأبيات في موضعها ويتأسون بها في موقعها، وكذلك قيل إن معاوية ذكر أبيات ابن الأتية ساعة فراره من المعركة ليلة الهير، معاودة الثبات وحس يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها

وقولى كلما جشأت وحاشت^(٢٤) مكانك تحمدى أو تستريحى
وقيل إنه تمث شعرًا وهو وجود بنفسه، فقل.

(٢١) الخرق يفتح بخاء والراء، الدهش من الفرع والحياء والنحير
(٢٢) الخرقا يفتح بخاء والراء، الدهش من الفرع والحياء والنحير
(٢٣) جشأت جشئت نفسه ارتفعت وثارب لقيء.

وتحلدي للشامتير أريهمو اسي لريب الدهر لا أتضعص
ثم قال.

وإدا المعينة أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة^(٢٤) لا ترفع

وقيل غير ذلك مما لا داعي للشك فيه إذا كان محصوله كله أنه كان يحفظ الأشعار والأمثال، ويستشهد بها في مواطنها على سعة بظرائفه من العرب أجمعين. ولما بعد. أن نفهم أنه نشأ في الجاهلية نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة، وتعلم ما يتعلمونه، وتربى على تربيتهم التي ألفوها، إلا أنه كان إلى تربية التجارة والتدبير أدنى منه إلى تربية الفروسية والنضال، فلم يؤثر عنه من فعال الفروسية بعد بلوغه مبلغ الرجال فمن يميزه بدرجة خاصة على فنونها المعهودة في زمنه كالمسابقة، وإصابة الهدف، واسبق على منون الخيل، والصمود للأفران في المبارزة، وعل تربيته الفروسية لم تزد على القدر الضروري الذي يعاب الجهل به ولا يبرز إلى مكان التنويه والتميز.

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين في مثل عمله وعمر أبيه، وهو تدبير التجارة القرشية، وحمل اللواء لحمايتها، والاستعانة بمن يصلحون لحراستها ويذنون عنها بالسلاح إذا وجب الذب عنها.

أما بعد الإسلام فهذه التربية، أو هذه النشأة، تقتزن سؤال آخر عن نصيبه من فقه الدين والثقافة الإسلامية، ويكاد يدعو الأمر إلى سؤال غير هذا السؤال في أمر الدين من أساسه، فإن أناساً من الغلاة قد شككوا في إسلامه، بل جزموا بإسلامه على دخلة ومداهة، فهل كان لهذا الشك من مسوع في عمله أو كلامه بعد إسلامه مع أبيه في عام الفتح كما هو معلوم؟

لقد تأخر إسلامه كما تأخر إسلام أبيه، فأسلف معاً في عام الفتح وهو في نحو الثالثة والعشرين، وليس هذا التأخر بموجب للشك في عقيدته، لأنه يحدث في كل دين وفي كل دعوة، وينقسم أساس في جميع الدعوات الدينية والفكرية إلى مبادرين ومترددين ومتلبثين متلكئين لا يستحيون لها إلا مع آخر مستحيين، ولا بد من بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق إيماناً وأثبت عقيدة من المبادر.

(٢٤) تميمة: خرزات، كان العرب يعلقونها على أولادهم لتقي العين

المتقدم، وليس من الجائز أن تتخذ العادة المطردة في الاستجابة للدعوات حجة على نفيها، فما كانت الدعوات مط إلا هكذا أو لا تكون ومعاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا بعلة تدق تصديقه بدينه ورعايته لفروصه وشعاره كان يصلي، ويصوم، ويركع ويحج، ويفرأ القرآن، ويستمع إليه، وكانت كل لفظة ماله بها وأحصيت عليه في مرض الوفاة تدل على الإيعان بقاء الله، وعلى الإيمان بالجاء في العالم الآخر، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له في ساعاته الأخيرة أنه كان يحتفظ بقلمه من طهر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة، أخذها من وصوئه، وما زال محتفظاً بها حتى أوصى بأمر تدفن في كفيه، وكل أولئك قد يسرى إليه الظن ممن تعالیه الظنون، إلا المعيشة بين الأه والبنين حيث ينطلق المرء على سجيته، وتبدر الفلتات على الرغم من طول الحذر والمراوعة ممن لهم باطن غير ظاهرهم في العقيدة الدينية، ولا تتصور أن رجلاً به باطن رظاهر في أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمن تقياً كخالد ومعاوية الثاسي حفيديه، فإن إخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته^(٢٥) أمر يفوق طاقة الإنسان.

قلنا في عقيدة صاحبه عمرو بن العاص إنه «مسلم لاشك في إسلامه، ولا شك في طبعه، ولا شك في اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعاً في كل دين من الأديان ورأى من الآراء، فلما نتحت له الحيلة باب التفكير في الإسلام أقبل عليه وود لو يغيمه بريئاً من عقابيل^(٢٦) الجاهلية، لأنه بعض يديه منها رأيق بضلالها».

قال وقد اعترم لقاء النبي - عليه السلام - ما حواه «فلقيت خالداً فقلت ما رأيك؟ قد استقام العنسم والرجل نبى فقال خالد: وأب أريده قلت وأب معك. وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدير أمرهما، فبايعا على أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما، فأصمرت أن أبايعه على أن يغفر لي ما تقدم وما تأخر، فلما بسد يده قمصت يدي، فقال عليه السلام ما لك يا عمرو؟ قلت: أبايعك يا رسول الله، على أن يغفر لي ما تقدم من ذنوبي قال: إن الإسلام ولهجرة يجبار ما كان

(٢٥) على رسلته بكسر الراء. على مهله وهي رفق وأناة

(٢٦) عقابيل. العقبولة بالضم واحدة العقابيل لم يثر على الشفة من الحبوب البيضاء عب الحمى.

فبإلها فبايعته، ووالله ما ملأت عيسى منه ولا راحته بما أريد حتى لحق ربه،
حياء مني»

وقلنا قبل ذلك «ومن سيرة عمرو بعد إسلامه بعلم أنه كان يتعبد، ويتصقق
ريستعفر من ذنوب وقع فيها، ويفهم الصلاة، ويسرد الصوم، ويعيش بين ذويه
مسلماً، وكلهم مسلمون»

ويقال في معاوية كل ما يقال في عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه
أو ملازماته في أعماق الطوية على غير وعي من صاحبها حيث يستوحبها
مع العقيدة في أعماله الظاهرة وسرائره الخفية
ومن حيل الطبع في العلاقة بينه وبين ربه أنها لا تخرج عن وحى سلبته في
العلاقة بينه وبين الناس

كان حريصاً على أن يبرئ ذمته ويبقى تبعته بما وسعه من حيلة وحول،
وهكذا كان اجتهاده في مفي التبعة عنه بين يدي الله
انظر مثلاً إلى حيلة طبعه حين أراد أن يبرأ إلى الله من أخذ البيعة بعده لانه
يريد قال في إحدى خطبه «اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله
فبلغ ما ملئت وأعده، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس لما صنعت
به أهلاً، فأقبضه قبل أن يبلغ ذلك»

وكأننا به يسائل نفسه بعد ذلك «ماذا بقي من البيعة على في عقابيل هذه
البيعة؟ غاية ما أرى به حق الله في أمر ولدي الذي أحبه أن أسأل له الموت إن
كان غير أهل لولاية العهد بعدى، من كان الله قد أبقه ولم يقبضه فقد صنعت
ما يستطيعه والد يطن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله»
ومن حيل الطبع في خطبته الأخيرة قوله «إن من أحب لقاء الله أحب الله
لقاءه، اللهم إني أحببت لقاءك فأحبيب لقائي».

حجة مقبولة عند الله، مخلوق يحب أن يلقي خالفه، فالله يحب أن يلقاه
وباختلاف طبائع الناس في الدين على غير وعي منهم لا معنى له إلا أنهم
يتدينون على حسب طبائعهم، وليس معنده أنهم يباغضون الدين ولا ينظرون في
بواطنهم عليه

ومن تحصيل الحاصل أن يقى إن معاوية يعلم من فقه دينه ما لا بد أن يعلمه
رجل كتب للنبي، وحضر مجالسه، وحضر عهده كله وعهد حليفته من بعده،

ومرت به الأقضية التي فصل فيها ولاية الأمر على مسمع منه، ورجع لفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأقضية، فهو على نشأته الجاهلية والإسلامية لم يقصر في معارف دينه وديار عن الطليعة بين مظرانه من السادة الأمويين والقرشيين.

الأعمال

مدد الفتح الإسلامي لم يعزل وال واحد من ولاية الشام لشكاية الرعية منه، ولم يوس العراق وال واحد لم يعزل للشكايات الكثيرة التي كانت تتقاطر على دار الخلافة من رعيته

ويرول لعجب بعض الشيء إذا نحن قسمنا القصرين قسمين آخرين، قسم هو حصة الدولة البيزنطية، وقسم هو حصة الدولة الفارسية

والشام التي كانت حصة الدولة البيزنطية كانت طويلة العهد بالنظم الإدارية والحكومية، وكانت فيها مدر من عواصم الدولة الكبرى، وعليها رؤساء من المميرين في الدولة بشارات السياسة والدين، وقد فتحها المسلمون على شروطهم المحددة للدميين المعاهدين، لأن أهلها كانوا جميعاً من أهل الكتاب، فلم يستقر الأمر للدولة الإسلامية فيها بعد روا الدولة البيزنطية، لم تكن من جانب الرعية مقاومة إجماعية، ولم يكن على شروط المعاهدة خلاف بين الحكام والمحكومين وكانت الشام كذلك أقرب إلى الاستقرار، لأن حدودها جميعاً كانت في بلاد الدولة الإسلامية، إلا الجانب الذي يلي تخوم الدولة البيزنطية، ولم يكن منه خطر كبير بعد صدمه الهزيمة الكبرى التي منى بها هرقل وودع بعدها تلك البلاد وداغ الأبد، وكان كل خطر من هذا الجانب - عظم أو صغر - تتلقاه الدولة الإسلامية بجيوشها البرية وأساطيلها البحرية في حملتها، فلم تكن الشام مهددة بالدفاع إذا هم الروم برأ أو بحرأ، بل كانت الولايات من إفريقية ومصر ومن الجزيرة في بعض الأحيان تتجمع لدفع الهجمات أو لانتقامها قبل وقوعها

وكانت سياسة عمر في تمكين الفتوح وتحصينها أرفع السياسات للشام خاصة، إذ كانت خطته كما جاء في فتوح البلدان للبلادري أنهم «كلما فتحوا مدينة طاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا» إليها الإمداد».

فانتظمت معاقب الدفاع عن الشام على شواطئها وعند أطرافها، وأحييت من

(٦) سرباً سرب الماء أسالته وإلى هلال الشيء أرسلته

كن جانب بالمدايعين عنها من حشد الدولة الإسلامية في الشرق والشمال والجنوب

ولأن حذرنا شيئاً كما ينبغي أن نحذر الإشاعات التي تسميها بالإشاعات التاريخية، ومن قبيلها إشاعة الضعف عن عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - عهد جنت هذه الإشاعة على القدر التاريخي، حتى خيل إلى الناس أنه لم يعمل عملاً قط انسم بالقوه أو خلا من الضعف، وهو إسراف في الرأي كإسراف جميع الإشاعات من قبيلها، لأن سياسة عثمان البحرية كانت أقوى السياسات، وكان فيها قسوة من بعده، ولم يكن مقتدياً بأحد قبله، ونحسبه عرف خطر الشواطي والمواشي من عمله في التجارة، فأصلح ميناء جدة في الحجاز، ولم يغفل لحظة عن الشواطي المفتوحة في إفريقية ومصر والشام، ولا يقال عن حملة واحدة من حملات البحر أنه كان مسوقاً إليها برأى غيره، فإنه - على ما هو معلوم من سبق معاوية إلى الاستئذان في فتح قبرص أيام الفاروق - لم يأت العزم الأكبر في هذه الحملة إلا من جانب عثمان، إذ كتب إلى معاوية يستوثق من حده في فتح هذه الجزيرة وتأمين الملاحة حولها، فأمره - كما جاء في البلاذري - بأن يركب البحر إليها ومعه امرأته «فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ماركبه مأذوناً لك وإلا فلا».

كانت هذه حال الشام يوم تولى معاوية إقليماً منها على عهد الفاروق، ثم تولاه جميعاً على عهد عثمان

وبخلاف ذلك، كانت حالة العراق من جميع الوجوه، فلم تكن فيها معاهدات ذممة تدين الرعية، ولم تكن حدودها الشرقية والشمالية آمنة كل الأمان في زمن من الأمان، فكانت - من البصرة، إلى أرمينية، إلى خراسان - عُرصة للحملات والفتن في كل آونة، وكانت الدولة الإسلامية لا تفرع لها كل قوتها كما أفرغتها لدفع عن الشام أمام الدولة البيزنطية، لأن دولة فارس ذهبت بذهاب ملكها، فلم يحسب لها المسلمون حساب القوة المتجمعة، وسلخوا فيها مسلك التأهب للمفاجآت الطارئة من هنا وهناك، وليس فيها ما يشعل بال دولة في مواجهة دولة أخرى.

وعلى هذا، كان العراق - أو كانت الحرية كلها - أطرافاً مهمة في أيام الدولة الفارسية، فمع يكن لها نظام من نظم الإدارة المتساقطة يسير عليه الحكم كما

سارت الحكومة الإدارية في الشام، ولم تنصح علاقات الحاكمين بالحكومين في أبحاثها كما اتصحت مع المعاهدين الدمييين وأحصل من ذلك كله بين مشكلاتها أن الفتح الإسلامي قد جاءها بمجتمع مختلف منقول إليها بحدافيره من سادته وهادته إلى سوقته ومواليه فقد انتقل إليها رهط من انقادة ودوى الرئاسة ليقيموا فيها، ويررعوا الأرض، ويُسجروا بين أبحاثها، وعاش إلى حابهم ألوف من الحدد المقيمين والحدد العاملين، وكلهم لهم أعطية من بيت المال، يعطاها من عمل في الفتوح الأولى ومن يعمل في العزرات التالية، وكان تقسيم الأعطية مشكلة من مشكلات هذا المجتمع المنقول. فمن بقى عاملاً في الغزوات يحسب له حق يستكثره على سابقه من المجاهدين المقيمين، وأعطية بيت المال تأتي كلها من المدينة، أو تصرف كلها بتقديرها، ويلازم الولاة في نظر الجدد، لأنهم لا يعرفون من الإحصاء والتقدير بين الفريقين، ويلازمون؛ لأنهم يعيشون بين أقربائهم وعشيرتهم ويتعرضون لشبهات المحاباة بالحق أو بالباطل، ولا تنقطع الشكاية من الولاية، إلا ريثما يعزل واحد منهم ويتلوه خلف له أخذ في العمل، فبأخذه القوم كربة أخرى بالنهم والشبهات

وقد ثقلت أعباء هذه الشكايات على كاهل العاروق وهو في هيئته وعمره وافتداده على قصص المصارعات، فلم يكر يرى في حواص المسجد مغموماً إلا علم أصحابه أنه مشغول بشكاية من شكايات الرعية أو الجدد في العراق

وبدأ معاوية أعماله العامة في الشام وهي بتلك الحالة من الاستقرار بالقياس إلى جميع الولايات الإسلامية الأخرى، وجاء عمله فيها تدريجياً من معاوينة لأخيه يريد إلى قيامه على ناحية من الشام خلفاً له إلى قيامه على أشام كلها في أيام عثمان، فكان كل عمل من هذه الأعمال بمثابة «فترة تمرين» لعمل الذي يليه ويريد عليه في السعة والتكليف، وكانت الأعمال «الحربية» أو أعمال التحصين يتولاها من حوله رجال من صناديد الحرب كعبدة بن الحراح وعبدالرحمن بن خالد، فلم يعم قط بقيادة حرية مستقلة ومن بها إلى نتيجته حاسمه أو ناجحة

ثم سببت الفتنة الوبيلة في خلافة عثمان وهو بمعرل عنها، وقتل عثمان

فاتخذ من مقتله ذريعة للخروج على الإمام على وإنكار بيعته، وسرف كل الإسراف في التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة، فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده في كل حديث وفي كل خطاب وفي كل حوار، ويكرر عليه بعض أصحابه أن يسمع علياً وأصحابه الماء في وقعة صفين، فيجد المَعذرة له في صنيعة أنه يسمعهم الماء، لأنهم سبوا عثمان لماء وهو محصور واستند إلى آية من القرآن الكريم فسرّها برأيه، ليقنع أنصاره بأنه على حق وأنه مصور، وهي قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَرِيقِهِ كَلْبًا فَلَا يُسْرَفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾

وعلى قدر اللهج بهذه العاجلة قبل استقلاله بالخلافة سكنت عنها وأغفلها بعد ذلك، فلم يعد إليها قط إلا ليعتذر إلى قرابة الخليفة المقتول من سكوتة وإغفاله ويخفي هنا أن نذكر أن معاوية لم يكن بحاجة إلى قدرة حارقة، لإثارة الشام باسم الخليفة المقتول؛ فإن عثمان كنت به مصاهرة في بني كلب أكبر قبائل البادية في الشام، وكانت زوجته مائلة بنت العرافصة تصف مصرعه في رسائلها، وتبعث بقميصه المحصب بالسدم وأصابه المبتورة فترفع على المبر حيث يراها شهود المسجد في كل صلاة، وكان جند الشام يعيدون عن معمعة^(٢) الفتنة، لم يسمعوا صوتاً من أصوات الثورة على الخليفة المقتول، ولا حجة من حجج السخط على حكمه وكانوا بين معسكرين أقربهما إليهم وإلى عملهم معسكرهم في ولاية معاوية، ومنهم طائفة كان يستقيها لديه ولا يأدر لأحد منها أن يبتعد من جواره برهة إلى معمعة الفتنة، محافة عليه من الاستماع لحجج المخالفين فيداخله الشك في دعوته ودعواه.

ولم ينته معاوية في نزاعه على إلى موقف فصل، بالحرب أو بالسياسة، ففي وقعة صفين حثت أنهريمة بجيشه ليلة الهرير، وأيقن بسوء لعاقبة إذا استمررت مدة القتال، فأشار عليه عمرو بن العاص بحيله امصاحف، فرقعوف في اليوم التالي ونادوا بالتحكيم إلى كتاب الله، فختلف حدد الإمام واضطر على جده المختلف إلى قبول التحكيم

(٢) معمعة صوت الأبطال في الحرب، وشدة القتال، والعنة العظيمة

ومن المؤرخين من يبالغ في خطر التحكيم ويحول له شأنًا في عواقب الصراع لم يكن له ولا كان من المعقول أن يكون له بحال

هذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على أية نتيجة من النتائج انتهى إليها، سواء اتفق الحكمان على حلح على ومعاوية معًا، أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر، أو لم يتفقا على شيء

ففي كل حالة من هذه الحالات، كانت العواقب صائرة إلى ما صارت إليه بلا اختلاف، وكان المعسكران يمضيان في طريقهما الذي مضيا فيه، فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأى يعليه عليه الحكمان متعقبن أو غير متعقبن

إنما وقعت الواقعة الحاسمة بمقتل علي - رضوان الله عليه - دون صاحبيه، ثم آلت خلافته إلى ابنه الحسن في معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالي والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين، ولا يعملون عمل الرؤساء مهتدين مضطلعين، وورث الحسن معسكرًا لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط، ليأمل به معسكرًا لم يقع فيه خلاف قط منذ الفتح الأول، إلا الخلاف الذي كان يريده معاوية ويعمل له، حذرًا من مغبة الاتفاق عليه

ولما امتنع طلب البيعة لغير معاوية بوضع معاوية وحده، أو بقي معارضوه متفرقين لا يلود فريق منهم برئيس يرشح نفسه لخلافة أو ينهض لها بحجة، فترك هؤلاء المتفرقين في العراق بصرب بعضهم بعضًا، أو في الحجاز لا يعملون شيئًا غير الترقب والانتظار

ولاشك، أن معاوية قد استفاد في إمارته - منذ اللحظة الأولى - من كل نظام مهيد في حكومة الشام، فأبقى ما لا عى عنه من نظم الإدارة، وتوسع فيه وراة عليه، وأبطل ما لا بد أن يبطل مع الدولة المتبدلة والدين الجديد

وقد وكل الإدارة المالية إلى الفئمين بها هي أيام الدولة البيزنطية وعلى رأسهم سرجون بن منصور، ثم ابنه منصور بن سرجون، ووكل الإدارة الكتابية إلى عبدالله بن أوس العسقي من وجوه الغساسنة أصحاب الملك القديم في الشام، وبطم البريد وتوسع فيه، للاطلاع على اخبار الأقاليم وإبلاغ الأخبار إليها على انتظام وترتيب، وأنشأ ديوان الحاتم بمراوحة الحساب بين العاصمة

(٢٧) موعها: موعه ما أصاب جعله شيئًا له.

والولايات، وعرر بناء الأسطول بتجديد مصانع السفن في عكا، واستجلب من فارس كل عامل باع في مسائل الخراج والإحصاء، وعيى بتسجيل المواليد والوفيات لتفسيح الأعطية والأرراق، وجعل للحند عملاً يصرفهم عن البطالة والشقاق، فداول بينهم وبين مواعيد الصوائف والمشواتى وهى مواعيد الحراسة والعزوفى بلاد الروم من بخوم الشام إلى أرياص^(٣) القسطنطينية، وكان يحرك الأساطيل من حين إلى حين لتهديد القسطنطينية وسواحل الدولة لبيزنطية ليشغلها بالدفاع عن التفكير فى الهجوم.

وبرر حرامة معاوية فى تدبير شئون ملكه مع ما اشتهر به سياسة العصر - فى إقبال الدولة والدنيا - من الكلف بمساعم العيش والتهافت على المتع والملاذات، بل مع اشتهاى معاوية نفسه بمثل هذا الكلف فى بيته وبعيما يشهده الناس من بهته وزينته، فكان عظيم العناية بأطياب الخوان، كثير الزهو بالثياب الفاخرة، والحنطة الغالية، وكان يأكل ويشرب فى آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجواهر، ويأسر للسماع واللهو ولا يكتم طريقه بين خاصة صحبه «لأى الكريم طروب».

إلا أنه كان على هذا كله لا يصيغ عملاً فى سبيل لذة، ولا ينكص عن مشقة تواجهه من أحل متعة تغريه، وربما أمر بإيقاظه ساعات من الليل لمراحة الرسائل والشكايات من أطراف الدولة القاصية، وربما جلس للمضالم بهاراً فاستمع إلى الحليل والدقيق منها، ونظر فى بعضها، وأحال بعضها إلى من يباط بها ويحاسبه على النظر فيها وكانت له قدرة على صبط هواه حين يريد، وقدرة على تصريف وقته كما يشاء

ولم برزت منه هذه القدرة لشاهد والعائب أتاحت له حجة تطلب الخلافة عنت عن اللحاجة بمظلمة عثمان، فكان يخطب ويقول «إننى إن لم أكن خيركم وأن أفعكم لأنفسكم»، وكان يقول للحس ولغيره «إنه لو علم أن أحدا أضبط لشئون الملك منه وأقدر على جمع الرعية حونه لما بارعه هذه الأمانة الثقيلة على عاتقه». وإذا كان الأمر امر قدرة وعجز فلا جدل فى وصف معاوية بالقدرة وبهى العجز عنه، لأنه من الصفات التى ترد على بال عارفيه أو خصومه بيد أن القدرة - كما قب فى الصفحات الأولى من هذه لرسالة - هى أحوج

(٣) أرياص جمع ريص بفتح الراء والباء ما حول المدينة من بيوت ومساكن

الصفت إلى التقدير، لأنها لاتعرف إلا بمقدارها، ولا تدل على شيء إن لم تكن قدرة على هذا الشيء أو ذاك

وتقدير هذه قدره إلى امدار به رأس الدولة الأموية - فيما يرى - أنها كانت الحزم غاية الحزم في الشوط^(٤) القصير، ولكنها بحلول من الحزم أو تحرف إلى نقيضه في الشوط الطويل والأمد البعيد.

إن معاوية لم يضيع عملاً حاضراً في سبيل متعة حاضرة، ولكنه أوشك أن يضيع العبد كله في سبيل اليوم الذي يشهده، أو في سبيل العمر الذي يحياه ألسنته الحاجة إلى إنفاق المال في أبهة الملك والإغداق على الأعوان والخدام إلى إرهاق الرعية بالضوابط ومخالفة العهود مع أصحاب الجزية، فكان من لولة من يطيعه، ومنهم من يجيبه معترضاً كما فعل وردان في مصر حين أمره بذلك فأجابه سائلاً «كيف أريد عليهم وفي عهدهم ألا يزداد عليهم»^(٥)

ومن الولاة الذين أنكروا أن تستصفى لأموال البيت مال الخليفة وإلى خراسان، الذي كتب إليه زياد يأمره ألا يقسم في الناس ديناً ولا عصاة، فكتب الراهب إلى زياد، «بلغني ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين، وإنني وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقاً^(٦) على عبد ثم انقضى الله جعل له مخرجاً والسلام».

إلا أن الولاة الذين أطاعوا وبالفوا في الطاعة أكثر من الذين دكروا بالمخالفة، وكلما اشتدت الحاجة إلى المال اشتد الطلب على الرعية، وعمد بيت المال إلى احتجاز حصة الزكاة من الأعطية لحسابها في الهبات والهدايا، وفتح هذا الباب على مصراعيه فتوسع فيه كل خليفة بعد معاوية، حتى جعلوا نحاسيون الناس «على التخمين»، ويحصون عليهم ثمراتهم قبل أن تنبت الأرض فيحسبونها عليهم بثمن دون ثمنها، ويأخذون منها ما يصل إلى أيديهم بالثمن الذي يختاروه، وتمادي هذا العسف إلى عهد عمر بن عبدالعزير الذي استعكره، وكتب إلى بعض ولاته يقول «إن عمالك يخرصون^(٧) الثمار عن أهلها، ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به، فأخذونها قرعاً^(٨) على قيمتهم التي

(٤) الشوط الجري مرة إلى العاية يقال: عدا شوطاً كما يقال: عدا حلقاً

(٥) رتقاً: رتق الشيء شدة ضد فتقه

(٦) يخرصون: يخرص الكرم والبخل قدره بطن

(٧) قرعاً: قرف على القوم، خلط وكتب

قوموها» ولم ينته هذا العنف حتى كانت نهايته بداية للخراب وإعلاس الدولة في ختام عهدها، فكان إعلاسه هذا - على حين حاجتها إلى مضاعفة المورد - سبباً من أسباب المعجول بزوالها.

وكأنما كان غرام معاوية بأبهة املك زهواً في قررة لنفس لا يبالي أن يباهي به من صادقه، ولو كان من لرهات المنكرين للترف والسرف وخیلاء الثراء والفخر بالبناء والكساء، فلما بنى قصر الحصراء بلغ من إعجابه بالبناء أن سأل أبا ذر داعية الزهد والكفاف من الرزق، كيف ترى هذا؟

فسمع منه جواباً كان خليقاً أن يترقبه لو لم يكن لرهوه بما ابتناه لا يصدق أن أحداً يره بغير ما رآه، قال أبو ذر إمام «لا شتراكيب» هي ذلك الرمان «إن كنت بديته من ما الله فأت من الخائنين، وإن كنت ينيته من مالك فأت من المسرفين»

وأشأم من هذه السياسة المالية سياسة الأمن أو سياسة صبط الأمور كما كان يسميها

فلس أصل صلاً ولا أهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة «إحدى وأربعين محرية» بعام الجماعة، لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة، ووقع فيها الشنات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة هي التفرقة بين الجميع، وسيان بعد ذلك سكوا عن رضا منهم بالحال، أو سكوا عجزاً منهم عن السخط والاعتراض، وكان سكوبهم سكون أيام أو كان سكون الأعمار والأعوام

ولم يقصر هذه الخطة على صرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل في العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج، ويصرب الخوارج بالشيعة، ويفرق بين العشائر العربية بعدالة التقريب والإقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة، بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفيانيين، فكان بأمر سعيد بن العاص بهدم بيت مروان كما تقدم، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد، ويعري أبناء عثمان بالمروانيين كما يعري المروانيين بأبناء عثمان

وفرق بين اليمانية والقيسية، أو بين جنوب الجزيرة وشمالها، فأعطى حسان

ابن مالك سيد القحطانيين حكمه هي صدارة المجالس لليمنية، ومصاعفة الأجر لهم، أو للألبيين الذين اصطفاهم من حزبه ورهطه، وحل لكل هؤلاء الألبيين حق التوريث من بعده لأقرب الناس إليه هي رواتب وأرزاقه ووحاشته وقيادته، واشترط رؤساء ايمانية عليه ألا يعقد في أمر أو يحل إلا بعد مشورة منهم يقدمهم فيها على ولاته ووزرائه.

وفرق كذلك بين العرب والموالي، وأوشك أن ينكل بالموالي ليقصيصهم عن مصاصب الدولة وعن الإقامة في عواصمها، لأنه كان يعلم أن العرب يلودون برؤسائهم، ولا رؤساء للموالي يلودون بهم في نقمة أو مظلمة

وانفتح للموالي بذلك باب اللياذ بأصحاب المداهب والدعوات، لأنهم رءوسهم دور الرءوس، وقادتهم دون القادة، هم يكذب دعية من الدعاة يحبر بمذهب معقول أو غير معقول إلا ألقى إلى جابه جموعاً من الموالي تصغي إليه، ووافق ذلك أن الخوارج من صميم العرب كانوا يدعون إلى مذهب في الخلافة يوافق الموالي في كل أمة، لأنه مذهب لا يحصر الخلافة في النسب ولا في قریش، ولا يرى لها شرطاً غير التقوى والصلاح، فتفرق الموالي بين الخوارج والشيعة، وبصروا هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى، لأنهم جميعاً يحاربون بني أمية

واتبع هذه الخطة - خطة التفرقة - بين أهل الشام الذين تمهدت له ولايتهم من قبل الإسلام، واستخلص لنفسه فرقة منهم لا تخرج من الشام ولا تلتقي بأحد من دعاة العراق أو الحجاز أو مصر أو إفريقية، ثم نقل إلى الشام طوائف شتى من غير أهلها، فنقل إليها طوائف الرط والسيابحة من البصرة، ونقل إلى الأردن وصور طوائف من الفرس والموالي، ونقل إلى أسطاكية أساورة^(أ) الموالي بالعراق، وخطط العرب بالحكم، وهؤلاء بسلالة الشاميين في كل بقعة من بفاع البلاد التي عرفت من قديم باسم أبلاد السورية

ولم يستطع أن يستخلص قبيلة بني كلب كلها لأن منهم أصهار عثمان وبيت مروان، واستخلص منهم أخوان يزيد، وأصبحوا بعد ذلك فريقين فريق يدعو إلى خالد بن يزيد، وفريق يدعو إلى مروان

(أ) أساورة: جمع أسوار وهو قائد الفرس.

وراصح من هذه المتفرقة أنه كان يكف يده عن البطش واليكاية في معاملتهم جميعاً على اختلاف النسب والمقام، لأنه كان يعزى بعضهم ببعض فيستغنى بالوقية بينهم عن الإيقاع بهم، ولكنه على هذا كان يؤيد سياسة الإيقاع مهما يكن من قسوتها وغلظتها كما أيدها أقسى الولاة وأعلظهم في زمانه وبعد زمانه، وكان يحتار لها من يعزم أنه يعرط فيها ولا يقتصد في شرورها ومويقاتها، ولا يبالي أن يأخذ البريء بذنب الأثيم، ولا أن يكل بالقرب قصاصاً من البعيد، وكذلك فعل واليه ريادة في البصرة حيث أعلن «شريعة» حكمه فقال في خطبه التي افتتح بها حكمه: «إني لأقسم بالله لأحدن الولي بالمولى، والمقيم بالطعر، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: أيج سعيد فقد هلك سعد، إياي ودلج^(٩) الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سكب دمه، وقد أحلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية؛ فإني لا أحد أحداً ادعى بها إلا قطعت لسانه، وقد أهدتكم أحداً لم تكن، وأحدثنا لكل ديب عقوبة، فمن عرق قوماً عرقناه، ومن حرق عبي قوم حرقناه، ومن بق بيتاً نقبت عن قلبه، ومن مبش قبراً دفنته فيه حياً فكفوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم لسانى ويدي، وإياي لا يظهر لأحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا صرير عنقه.

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(١٠) ففعلت ذلك دبر أدنى^(١١) وتحت قدمي، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً، ومن كان مسيئاً فليزدد إساءته إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغصى^(١٢) لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له سترًا حتى يبدي لى صفحته، فإذا فعل لم أباظره».

إلى أن قال واعدأ بعد هذا الوعد «واعلموا أني مهما قصرت عنه فلست بمقصر عن ثلاث لست محتجباً عن طاب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل، ولا حابساً ررقاً ولا عطاء ولا محمراً^(١٣) لكم بعنا فدعوا الله بالصالح لأئمتكم، فإبهم ساستكم المزدبوس، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى تصلحوا يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بعصمهم فيشتد لذلك عيظكم ويطول له حرككم».

(٩) الدج: بفتح ديم المهر أول الليل.

(١٠) إحن: جمع إحنة وهي الحقد.

(١١) دبر أدنى وراء أدنى.

(١٢) مغمراً: جمر الجيش القوم حبسهم في أرض العذر لا يغادرونها.

ثم عاد إلى الذير والوعيد فاختم خطابه قائلاً : « إن لي فيكم لصري كثيرة فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى ».

وقد أمر صاحب شرطه أن يخرج بعد صلاة العشاء وأيقصاء هريج من الليل، ثم لا يرى إساناً إلا قتله، وحىء إليه يوماً بأعرابى لم يقتله صاحب الشرطة لاشتباه أمره عليه، فسأله رباد أما سمعت النداء؟ قال الأعرابى لا والله قدمت بحلولة لي وغشيتني الليل، وأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير

قال. أظنك والله صادقاً. ولكن في قتلك صلاح الأمة، وأمر به فضربت عنقه ومثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره «مببط» الأمور وتأمين الناس، لأنه يؤمنهم بخوف أشد عليهم من خوف العدوان، ولكنه على هذا لم يصلح للضبط والتأمين إلا فترة لم تطل. ولا يزال. سواء منها على الأمة أن تنقصى عن عدوان أهل البغى أو فى تكال السلطان بمثل هذا الكال، ثم انقصت هذه الفترة، فنجمت نوحم الشر ولم تنشب فى تلك الأنحاء ناشبة من الفتنة إلا كان لها حرثومة من تلك السياسة التى تفسد الأمور فى زمانها وفيما بعد زمانها

وكان الناس من حين إلى حين يهربون من هذه للشدة وينحرمون بحوار العاصمة فيحيرهم معاوية ولا يكف يد واليه عن غيرهم، وكتب إليه زياد مرة إن هذا فساد لعملى كلما طلبت رجلاً لجا إليك وتحرم بك

فكتب إليه معاوية «إنه لا ينبغي أن يسوس الناس بسياسة واحدة، فيكون مقاماً مقام رجل واحد، ولكن تكون أمت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيديا..»

على أن زياداً تخرج أشد انحرج فى قضية حجر بن عدى، وأرسله إلى معاوية فلم يتخرج معاوية من قتله، ولم يذكر الناس لزياد من جرائم قسوته فى حكمه ما ذكروه من جرائم هذه السقطة لمعاوية

وساءت العقى من سياسة التفرقة كما ساءت العقى من سياسة القسوة، فلم تنحى فى الدولة راجمة فتنة إلا كانت جرثومتها فى هذه السياسة، وكان حزم معاوية وكانت قدرته فى كل هذه العفن حرمًا لا بد به من عقيب، وكانت قدرته فى أعماله جميعاً قدره لا بد لها من تقدير

وجماع الصدق فى هذا التقدير أنها كانت قدرة على الشوط القصير والأمد

القريب، ولم تكن قط قدرة على الشوط الطويل والأمد البعيد، واستقر الملك لمعاوية على قلق دخيل إلى أن أدركته الوفاة سنة ستين لهجرة، ويظل نصفه قبل وفاته كأنه صرب من الشلل، وأصابته لوقه، وسقطت أسنانه جميعاً، كأبها من أدواء التخمّة التي تعجل إلي الكبد والأسنان، ويبدو أثرها في مرض الجلد والثآليل، وكان يخلط في وفاته أحياً، ولكنه كان يصحو ساعة بعد ساعة حاصر الدهن صحيح السنان، فدعا بصاحب شرطه الصحاح بن قيس الفهري، وبمسلم بن عقبة صاحب الأعاصيل المشهورة في حرب أهر المدينة، وقال لهما في أشهر الاسايد «بغا يزيد وصيتي بنظر أهل الحجاز فإنهم أهك، فأكرم من قدم، عليك منهم وتعاهد من عاب عنك، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام وليكونوا لسانك وعيبتك^(١٣)، فإن سبك شيء من عدوك فاستصر بهم، فإذا أصبتهم عاردهم أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر»

ويقال إنه ألقى هذه الوصية إلى يزيد فقال «يا بني، إني قد كفيبتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخصمت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينزعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش الحسين بن علي، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن أبي بكر فأما عبدالله بن عمر فرحل قد قدفته العبادة، فإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك قطعت به، فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً، وأم ابن أبي بكر فرحل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم، ليس همه إلا في النساء والله، وأما الذي يجثم لك حثوم الأسد ويراعك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثقه هداك ابن الزبير»

وشبهه أن تكون هذه الوصية في معناه آخر ما قاله وخلاصة ما خرج به من تجارب دنيته، فإنها سياسته التي كان يعيدها كما بدأها برأيه عماد ليعتدئ بها من جديد في أيام يزيد معرفة بالرجال وقدرة على التدبير في الشوط القصير،

(١٣) عيبتك العيبة وعاء من خلد يكون فيه المتاع. ومن الرجل. موضع سره.

وأحكام العقدة بالتها في حينها، وبغير نظر إلى آلتها بعد ذلك الحين، ومن ذلك
اختياره لإبلاغ الوصية أسوأ من يعين عليها مع الزمن مسلم بن عقبه والضحاك
ابن قيس ومع ذلك مدافعه النفس بالمجاراة والمداراة، فيومسي خليفته بعزل وال
في كل يوم ولا يوصيه بالنظر فيما وراء ذلك من سخط على الحاكم وعجز عن
إرضاء المحكوم. وصية رجن قدير، قدير عاية القدرة في الشوط القصير

في الميزان

حق الأمانة على لمؤرخ في هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي أن يراجع بينه وبين صميمه طائفة من الحقائق البديهيّة، قبل أن يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم المناقب والمآثر بقيمتها.

ومن هذه الحقائق البديهيّة أن الأموال التي بدلها معاوية للمأجورين من حوله لم تبدل لتعريف الناس بحسناته وسيئاته كما يعرفها من لم يأجر بمال ولم يتصل معه بسبب.

ومن هذه الحقائق البديهيّة أن سلطان معاوية يدخل في الحساب حيث يؤوب الباحث إلى ذلك الرمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان في سمعته وذكره.

ومن الحقائق البديهيّة تواطؤ الرمن على إقرار ما قيل وتكرّر وطرأ وقوعه في الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شيء من التغيير، وحتى لتكاد تعجز عن البعاز إلى الحقيقة لو رغبت في ذلك التغيير لسبب من الأسباب، وقلمّا تعرض هذه الأسباب لمن لا يعيدهم تمحيص ما يقال في الساعة الراهنة، فصلاً عما يقال ويعاد منه منات السنين.

ومن الحقائق البديهيّة أن المحاباة تأتي بتوافق الطبائع، كما تأتي بالعرض والرشوة، فلا يسهل على الإنسان نقد صفة يعلم أنه متصف بمثلها، واستنكار وسيلة يعلم أنه لا يستنكرها ولا يأبى المحاح إذا موّل بها إليه.

ومن الحقائق البديهيّة أن المحاباة تأتي من جهات لم تخطر للمنتفع بمحاباتها على بال، فالدولة الأموية في الأندلس أنشأت للشرق الإسلامي تاريخاً لم يكتبه مؤرخه، ولا يكتبوه على هذا النحو لو أنهم كتبوه، وحامت تلك الدولة الأسديّة بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميراث راحاً لكل سيرة أموية لا يقصدونها بالمحاباة ولكنهم لا يستطيعون أن يقصدوها بالحق والملازمة، لأنهم مصروفون بهواهم عن هذا الطريق.

من هؤلاء أناس في طبقة ابن خلدون، يصنع معاريف في ميزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشدين، ويتمجّل المعادير به في إسناد ولاية العهد إلى ابنه مع مسوقه وخلل سياسته، وكراهة الناس لحكمه حتى من أباء قومه.

ولا يهولن قارئ التاريخ اسم ابن خلدون فبذكره ويسمى الحقائق البديهية
التي لا تكلفه أكثر من بصره مستقيمة إلى الواقع الميسر لكل باظر في تواريخ
الخلافاء الراشدين وتاريخ معاوية

فما في وسع ابن خلدون أن يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين
معاوية والصدوق والفاروق وعثمان وعلى في مسلك من مسالك لدين أو الدنيا،
وفي حالة من أحوال لحكم أو المعيشة، وإنه لفي وسع كل قارئ أن يجد
المشابهات الكثيرة التي تجمع بين معاوية ومروار وعبد الملك وسليمان وهشام،
فلا يفرقون فيها إلا بالدرجة والمقدار، أو بالتقديم والتأخير وإذا كان هذا شأن
ابن خلدون، فحق ما شئت في سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتاريخ، من
مشاركة شهد وأزمان الدولة ومشاركة بم يشهدوه، ومن معارضة عاشوا في ظل تلك
الدولة، وتعلقت أقدارهم بأقدارها، وأيقنوا أنهم لا يسقصون منها شيئاً ثم
يستطيعون تعويضه من الأسس بما يفنيهم عنه، وما زال العهد بالمنيت عن
أرومته أن يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها

إذا روجعت تلك الحقائق في ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد
عليها في بآن الدولة، وكل ما علق بها من تراطؤ الزمن وتكرار العادة وكس
السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألّف سواه.. لقد تمهدت
لمعاوية أسباب لم تتمهد في عصره لأحد غيره من قبل الإسلام، وفي صدر
الإسلام، إلى أيام عثمان.

ولم يكن معرطاً أو عاجزاً فلم يصيغ ما تمهد له بعجلة لا تؤمن عاقبتها،
أو بتقصير عن الفرصة في أونها، وكان له دهاء وحلم، وكان فيه طموح واعتداد
بالنفس وسمة من سمات الرئاسة..

وكان له من كل أولئك قدره الذي أعاده على مقصده كما أعين بغيره، فكان في
يديه من المال والحد وسلطان الولاية ما لم يكن في يدي أحد من نظرائه
ومسارعيه، ولولا ذلك لما أفاده دهؤه مع أعوانه من الدهاء، لأنه لم يطلبهم بعقل
غالب، ولم يصرعهم عن مقصدهم إلى مقصده، بس خدمهم وخدمه، ولو لم يكن
عنده ما يطلبونه لخدموا غيره أو سارعوه على سواء، وربما سارعه بعضهم على
رححان

وكان له حلم أو شئ أن يحرمه عرة الرئاسة ولكنه حلم من لا يقضب، وليس

بحلم من يغضب ويملك عدان غصبه، فسيان أن يركب غصبه بعنان أو بغير عدان، فإنه في غنى عن قوة الساعد مع مطية لا تتورث ثورة الحماح في كل حين وكان له طموح إلى السيادة، ولكنه طموح الألفة والنعادة، ورثه مع جاه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليفة «الحيوية» التي يطبع عليها العصاميون، فكأنما هي حرة من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كم يطلب الميراث. وإذا ورثت قدرة معاوية بميران النحاح حصل من نجاحه في كفة الميزان حاصل قليل يهوى شأنه مع أثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهموم فقد أراد الملك له وبننيه، ولم يرد له بنى أمية أحمرين، لأنه فرق بينهم ما اجتمع، وأغرى أناساً منهم بأناس، ولم يعمل عمله إلا ليتركه من بعده لعشيرته من بنى سفيان، فلم يخلعه من ذريته غير يريد، وذهب يزيد في عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه

وتبعة معاوية في عاقبة ولي عهده الذي خرق الخوارق من أجنه أعظم جد، من مسعته في توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده، فقد جنت عليه تلك الخليفة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الإملاء لهم في النعمة والمتاع، وما كان يزيد ليقتصد في مطاعمه ومناعمه وهو ينظر إلى قدوة سبقتة إلى تلك المطاعم والمناعم، وسبقتة إلى تدبيرها له كلما استعصت عليه، ولو لم تكن من الشهوات التي يقضيها الآباء للأبناء

إر دات الحب مرض من أمراض الكبد، وأمراض الكبد قصاء حتم على المصهور بطعامه والمفرط في شهواته، وقد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك صنع له عدة النعمة والمتعة، ووضع له عدة الملك والسلطان، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك

وخرج معاوية من الملك بالأيام التي قصاها في نعمته وثرائه، ولا يقول في صولته وعزّه، فقد كان يس لكل ذي بيعة مشودة ذلاً لم يصير من بايعوه على مثله، ولو وزن ما احتمله في سبيل بيعتهم وما احتملوه في سبيل طعنه، لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين، أما تبعته العامة في أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله حسامة عمل في عصره، لأنه يكس بالملك خطوات، وكان في ميسوره أن يتقدم به خطوات تريب عليها، مع ما بين الخطوة الساكسة والخطوة المتقدمة من بون بعيد.

(١) يكس، فلا من الأمر أرادته ثم رجع عنه

لم يكن في ميسوره أن يديم على الدولة خلافة خلافة الصديق أو الفاروق، ولكن كان في ميسوره أن يجنبها الكسورية والهرقلية، وأن يجعل للخلافة أثراً باقياً في ولاية الأمر، إن لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم. ولو أنه أنشأ هذا الملك في الدولة الإسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الإسلامي، والعالم الإنساني عليه.

غير أن الناس عرفوا في زمانه قارقاً شاسعاً بين ولى الأمر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للخلق والخالق، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والإنصاف، وبين الحكم الذى يحاط بالأبهة ويجرى على سنة المساواة ويعطى لصاحبه فى البذخ والعتعة، ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغالاة بصفائر الحياة. كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما ييكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة.

وتتابع عليه فى أيامه الأولى من يقول له: السلام عليكم أيها الملك. فكان ينكر الاسم ولا ينكر السمة، إلى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التماضى فيها، فتماضى فيها وقال جهرة لمن حوله: نعم أنا أول الملوك!

وتبعته فيما شجر^(٢) بعده من خلاف توازن تبعته فى هذا الخروج بولاية الأمر من روع الخلافة إلى أبهة الهرقلية والكسورية.

فما كان من المعقول، ولا من طبائع الأمور، أن تذر فى الأرض كل تلك البذور من جراثيم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل التفرقة سناً لصاحب الأمر مئات السنين كما كانت لمعاوية سنوات معدودات.

تبعات يحسب حسابها العسير إن كان للتاريخ جدوى يحرص عليها، وكان لشرف الذكر وزن يقام.

ولست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزداد، وإنما جدواه أن يسان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الإنسانية من تشريف أبنائها فى الحياة وبعد الممات، فلا يباح عرض الإنسانية لكل من يملك طعاماً يملأ به البطون أو مالاً يملأ به الجيوب، ولا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتثوب العقول والضمائر إلى التسليم، ويتساوى الجوهر والطلاء فى ميزان الخلود والبقاء.

(٢) شجر: شجر بينهم الأمر: تنازعوا فيه.

ومعاوية في هذا الميزان، لا يخرج منه مغبوناً ولا غائباً للحقيقة من بعده، وإنما تحسب له قدرته بتقدير، ويعطى من أثر قدرته، ومن أثر نيته، ما هو به حقيق.

وقد عمل بملك القدرة ما أفاده وأفاد قومه وأفاد الأمم التي تولاهما فيما تستفيد من قرار الدولة و«ضبط» الأمور، وذلك حق القدرة الذي لا حاجة معه إلى اللجاجة في أمر النية، فلو أن أحداً أرك أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفسه ولبنيه لما بقى في ذلك السجل عمل واحد تطول فيه اللجاجة حول النيات.. ونعود فنقول إنها قدرة لا ترسل على إطلاقها بغير تقدير، وإن تقديرها الحق أنها غاية القدرة إلى الشوط القصير.

لقد كان قويا لا مشاحة^(٣) في وصفه بالقوة على مثالها. ومثالها أنك تصرغها في خيالك على صورة من الصور، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور.

(٣) مشاحة: منازعة ومناقشة.

الفهرس

٣.....	تقدير وتصدير
١٢.....	بين القدرة والعظمة
١٤.....	تمهيدات الحوادث
٢٣.....	الدهاء
٤٤.....	الحلم
٦٦.....	خليقة أموية
٧٨.....	موقف معاوية من قضية عثمان
٨٧.....	النشأة والتكوين
١٠١.....	الأعمال
١١٤.....	فى الميزان

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

٥٦ - مع ساحل الجزيرة العربية	٢٨ - الإسلام مرة عالمية	١ - الله
٥٧ - مواقف وتصايا في الأدب والسياسة	٢٩ - الإسلام في القرن العشرين	٢ - إبراهيم أبو الأنبياء
٥٨ - دراسات في الأدب العربي	٣٠ - ما يقال من الإسلام	٣ - مطلع النور أو طواف البحيرة العمودية
والاجتماعية	٣١ - خلائق الإسلام ولها طيل خصومه	٤ - عبقريته محمد ﷺ
٥٩ - قرأ في الأدب والفنون	٣٢ - التفكير خريشة إسلامية	٥ - حيلرة حبر
٦٠ - بحوث في اللغة والأدب	٣٣ - المصنفة التراثية	٦ - عبقريته الإمام
٦١ - عوامل في الفن والتربية	٣٤ - الديمقراطية في الإسلام	٧ - حيلرة حقد
٦٢ - دين وفن وفلسفة	٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية	٨ - حياة المسيح
٦٣ - فنون وشجون	٣٦ - الثقافة العربية	٩ - ذو النورين عثمان بن عفان
٦٤ - قيم ومعايير	٣٧ - اللغة الشاعرة	١٠ - عمرو بن العاص
٦٥ - الميزان في الأدب والتقدم	٣٨ - شعراء مصر وديانهم	١١ - معاوية بن أبي سفيان
٦٦ - عبد القلم	٣٩ - أشقات مجتمعات في اللغة والأدب	١٢ - داعي السماء بلال بن رباح
٦٧ - رموه وحده	٤٠ - حياة قلم	١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي
٦٨ - ديوان يفتة الصباح	٤١ - خلاصة اليومية والشذور	١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون
٦٩ - ديوان رجع الظهيرة	٤٢ - مخبئ ذوي العمامات	١٥ - حقد الشجرة
٧٠ - ديوان قشاح الأصيل	٤٣ - لا شوعية ولا استعمار	١٦ - إلهوس
٧١ - ديوان وحى الأربعين	٤٤ - الديمقراطية والإنسانية	١٧ - جحا الصاخب المسحوق
٧٢ - ديوان حديد الكروان	٤٥ - الصهيونية العالمية	١٨ - أبو فؤاد
٧٣ - ديوان عابر سبيل	٤٦ - أسوان	١٩ - الإنسان في القرآن
٧٤ - ديوان أعاصير مغرب	٤٧ - أبا	٢٠ - المرأة في القرآن
٧٥ - ديوان معه الأماصير	٤٨ - عبقريته الصديق	٢١ - مقبرى الإصلاح والمعلم الإمام محمد عبده
٧٦ - عرائس وشياطين	٤٩ - الصديقة بنت الصديق	٢٢ - سعد وأهل رعيمة الثورة
٧٧ - ديوان أشجان الليل	٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية	٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي
٧٨ - ديوان من دواوين	٥١ - مجمع الأحياء	٢٤ - عبدالرحمن الكواكبي
٧٩ - هتار في الميزان	٥٢ - الحكم المطلق	٢٥ - رجعة أبي العلاء
٨٠ - أميون للشعوب	٥٣ - يوميات (الجزء الأول)	٢٦ - رجال عرفتهم
٨١ - القرن العشرين ما كان وما سيكون	٥٤ - يوميات (الجزء الثاني)	٢٧ - سار
٨٢ - النازية والألمان	٥٥ - عالم السود والقبور	

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع، www.enahda.com

